رحلة سمو الأمير الجليل محمد علي إلى جاوة

محمد علي

رحلة سمو الأمير الجليل محمد علي إلى جاوة

تأليف
محمد علي

هنداوي

رحلة سمو الأمير الجليل محمد علي إلى جاوة

محمد علي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٦٦ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

المقدمة ٧
جاوة ٩
٣ أغسطس سنة ١٩٢٩ ١٥
٤ أغسطس ١٩
٥ أغسطس ٢١
٦ أغسطس ٢٧
٧ أغسطس ٣٥
٨ أغسطس ٤١
٩ أغسطس ٤٣
١٠ أغسطس ٤٥
١١ أغسطس ٤٩
١٢ أغسطس ٥٣
١٣ أغسطس ٥٧
١٤ أغسطس ٦١
١٥ أغسطس ٦٥
١٦ أغسطس ٦٧
١٨ أغسطس ٩١
١٩ أغسطس ٩٣
٢٠ أغسطس ٩٥

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

حين تقدَّمنا إلى بني الوطن العزيز برحلتنا إلى «أستراليا» من بضعة شهور كان من حظنا أن نعدهم بتقدمة الحلقتين الباقيتين، رحلتنا إلى «جاوة» ورحلتنا إلى الهند.

وكأنما أراد الله أن يُفسح أمامنا سبيل التوفيق فيما أخذنا به من تحقيق دقيق لهذه الممالك التي أنعم علينا بزيارتها والتجوال فيها، واستظهار بواطنها وحواشيها، فهيَّأ لنا جلَّ شأنه من أسباب الرعاية ما تمكَّنا به أن نفي بالعهد ونبر بالوعد.

وإنَّه لخير أن يقرأ أبناء الوطن المحبوب — وهم شعبة من الشرق — حديثًا عن بلد شرقي يُسطِّره قلم يفاخر بشرقيته ويعتز بها.

إلى ذلك ناحية أخرى يُحسها المسلم شَغفًا وأملًا في دراسة أحوال أُمَّة تؤاخيه في الإسلام.

ولقد طالما تلمَّسنا روح هذه الرغبة في إخراج هذه الرحلة ممن قرءوا رحلتنا الماضية واطَّلعوا على ما ضمَّت واستوعبوا ما احتوت.

فكان لنا في هذه الرغبات الصادقة ما دفعنا إلى أن نُيسِّر من وقتنا فَيْنات متفاوتة نقضي خلالها إلى جمع مُذكراتنا، والبلوغ بها أخيرًا إلى هذه الحالة التي يشهدها عليها أبناء الشَّرق الجميل.

فإذا نحن قدَّمنا رحلتنا إلى «جاوة» تسجيلًا لما تركتْ في نفسنا من أثر بعيد، ودفعًا إلى التاريخ الخالد بما قد ينفع الخلَف ويُجديهم فإنَّما ندعو الله أبلغ الدعاء، ونرجوه أوفر

الرجاء أن يُمدَّنا بفيض من رعايته حتى نُقدِّم في موعد قريب رحلتنا إلى «الهند»، وحتى تتم بها الحلقة الأخيرة في سلسلة رحلاتنا حول العالم، هذه الرحلات التي قضينا فيها وفي نوالها ما قضينا من جهود بذلناها مخلصين، وتحمَّلنا أعباءها مؤمنين بأنَّها شطر من العمل الصالح المفيد.

جاوة

كلمة جامعة

حين استعمر الهولنديون جزيرة جاوة — وهي أقدم مستعمراتهم في آسيا — تلفَّتوا إلى صعيدها فإذا به يدلُّ على كثير من الخصوبة ووافر من الحياة، فبذلوا جهدهم في تمهيده للإنتاج الصالح تمهيدًا يكفُل لهم الربح الوفير، حتى أصبحت "جاوة" بفضل الجهود التي بذلوها، وبفضل ضآلة أجور العمال فيها تشبه في شأنها مصرنا العزيزة في وجهة الزراعة ونمائها واستطراد النجاح فيها.

ولم يترك الهولنديون شِبرًا واحدًا مما يصلح للزراعة في جاوة دون أن يستغلوه، ودون أن يُصلحوا من شأنه.

على أنَّ الظاهرة التي تمسُّها في النَّاحية الزِّراعية بجاوة ظاهرة تدل على تعاسة أهليها وشقاء المواطنين فيها؛ فإنَّ الهولنديين ككل شعب أوروبي طموح قد امتلكوا كثيرًا من هذه الأرض الخصبة سواء بالوراثة عن آبائهم وأجدادهم، أم بتحوير الفضاء الواسع على أكتاف الجاويين وبأيديهم إلى أرض زراعية تئول إليهم وتئول إلى جيوبهم خيراتها.

وعلى هذا، فإنَّ موارد الثروة تنتهي إلى خزائن الهولنديين، وإن نتاج الجزيرة العظيم لا تمتد إليه يد غير يدهم التي عرفت كيف تغرس البذرة السليمة في الصَّعيد الخصيب لتجني حصادًا موفورًا جمًّا.

وكما أنَّ كثيرًا من أغنياء الإنجليز يأخذون موارد ثروتهم مما يجلبونه من الهند، بل كما أنَّ الإنجليز جميعًا ينظرون إلى الهند، فإنَّ الهولنديين قد جعلوا من جاوة ذلك المصدر الذي لن ينتهي خيره ولن تخبو شُعلة حياته.

فعلى ضوء هذه الحالة التي يشاؤها الهولنديون من مستعمرتهم الآسيوية الجميلة تمكَّنوا من أن يُلبسوها ثوبًا قشيبًا من الرونق الممتع والبهاء الجذَّاب، فعبَّدوا من طرقها ومهَّدوا فيها أسباب النظافة، وآتوها من ألوان العناية بالصحة العامة ما ترى أثره على الجاويين، أولئك القوم الذين لا تقع بينهم على واحد ذي عاهة أو عيب، على الرغم من هزالهم الطبيعي وضعفهم الكبير.

وقد لا نغلو في القول؛ إذا نحن تحدثنا في هذه الكلمة أنَّ الهولنديين يرعون جانب المجاملة في معاملتهم لسكان الجزيرة، فقد باعدوا بين هذه الفوارق المُنفِّرة، وجعلوا منهم شُعبة جاوية إن حق لها أن تفاخر على المجموعة بشيء، فإنَّما تفاخرها بالتهذيب واللون الأبيض.

نعم باعد الهولنديون بين هذه الفوارق فقبلوا أن يخالطوا الوطنيين ويمتزجوا بهم حين ارتضوا أن يُزوِّجوهم ويتزوجوا منهم، وهذا في الحق صنيع جميل، وعمل يدل على الرأفة التي تشعَّبت بها عقول المستعمرين الهولنديين دون سواهم.

وليست مسألة الاختلاط الجنسي كل ما أخذ الهولنديون به أنفسهم من التقرُّب إلى سكان الجزيرة، بل إنَّ هناك مسألة قلَّ أن أخذ بها الإنجليز والأمريكيون، وقلَّ أن آمنوا بأنَّها دليل واضح على حسن الطَّوِيَّة وسلامة الضمير، تلك هي أنك ترى الجاويين يُخالطون الهولنديين في النوادي والمجتمعات، وترى أنَّهم في هذا الاختلاط لا يبدون أقل شأنًا ولا أيسر احترامًا فيها من أندادهم الأجانب؛ فجميعهم في هذه الحلبة إخوان وعلى قدم المساواة.

بارزة ظاهرة

وثمة ناحية نشهدها في جاوة، وهي أنَّ السلاطين فيها قوم فقراء جدًّا مُعدِمين بما لا يُلابس مراكزهم، ولا يُجانس قيمتهم في تلك الحياة؛ ذلك أنَّ أكبر راتب يتقاضاه أجلُّ سلطان فيهم لا يجاوز ألف جنيه في الشَّهر، وعلى الرَّغم من هذه الضآلة الواضحة في رواتبهم فقد أصبح من الحتم عليهم أن يُحيطوا أنفسهم بسياج من العظمة والأُبَّهة، وقد تمثَّلوا هذه العظمة فيما غمروا به قصورهم من مئات الخدم، ومئات النساء يسيطرون على الأولين ويتبادلون الآخرين في غير عمل إلا الأكل والنوم، وما ينصرم بين هذين من أوقات يقضونها إلى الزوجات.

ومن العجب ألا يكون لأولئك السلاطين عمل رسمي بارز، اللهم إلا في مناسبة الأعياد الدينية حين يخرجون برجالهم لقضاء التشريفة، وإلا حين يستقبلون حاكم الجزيرة وما إليه من عظماء الأجانب، وهذا جُلُّ رسميتهم وكل ما يؤدون من وظائف عامة.

وبين المشاهد الأخَّاذة التي تغمر الزائر العربي في جاوة أنَّها تجمع إليها أشتاتًا من العرب أقاموا مدارس عامة للتعليم العربي، على أنَّها وإن تكن فقيرة في مالها، فإنَّها في الحق تُؤدي عملًا جليلًا يستحق الإكبار والفخر.

وليس ذلك الفقر وليد الظروف الخاصة التي تُحيط الأهالي عامًا من أعوامهم ثم تندثر بل هو طبيعة تضم الوطنيين جميعًا، أولئك الذين يعيشون على التافه القليل، بينما يعيش الهولنديون عيشًا رغيدًا سعيدًا.

وهنا لا محيص لنا من أن نذكر أن الأغنياء وذوي الثروة في جاوة لا يتألَّفون إلا من طبقات الهولنديين، تتبعهم الشركات الأجنبية، تتلوهم فئة التجار من الصينيين، هذه الفئة التي استحلَّت حُرمات الذمم، واستحوذت على جوانب الرياء والمعاملة السيئة الضارة، فإنَّها في معاملتها مع الأهالي قد استنت سنة اليهود والأروام في جميع البلاد، وقد بزَّتهم في ظاهرة غريبة أليمة، حين تعطيهم بضائعها بثمن باهظ، وحين تطالب الفلاحين الذين لم يتدربوا على القراءة والكتابة — وهم كثيرون — بثلاثة أضعاف ما اتَّفقوا عليه من ثمنٍ استغلالًا لجهلهم، واتِّكالًا على سريرتهم الطيبة!

ومن الخير أن نُسجل في سِجل رحلتنا عن جاوة هذه الميزات الجميلة التي يتمتع بها أهلوها، فإنهم على أجمل ما نرجو في طيبة النفس وسلامة الشعور، وإنَّهم لعلى جانب عظيم من جمال التربية الإسلامية المجيدة التي تهتف بالإخاء والنقاء والصفاء والتقوى.

وإنَّه وإن تكن هذه الميزات وحدها خير ما تنشد البشرية من محامد فإن الجاويين قد أَلبَسوها دِثارًا من تقديرهم للحياة كأنَّهم يعيشون أبدًا، يعنون جِدَّ عنايتهم بالنظافة فلا ترى فيهم رثًّا ولا أشعث أغبر، ويستقبلون في كثير من الإكبار والخضوع دون أن يسترسلوا في مواطن الصلف، ولا في رحبة الكبرياء، آخذين في هذا السبيل عن طوِية صادقة ونفس حساسة كبيرة.

وقد اتَّخذوا لهم كثيرًا من عوائد الهنود والصينيين، أولئك الذين يُشبِهونهم في صور شتَّى؛ فعيون الجاويين وأوداجهم جد شبيهة بأمثالها في الصين، وألوانهم وأجسامهم تتراءى لك وكأنَّها قد خُلقت من طينة الهنود.

وهذا ما يدفعني إلى القول بأنَّ الجنسية الجاوية مزيج من الصين والهند تهيَّأت لها هذه البقعة الخصيبة في تلك الجزيرة فآووا إليها والتأموا فيها شعبًا كاملًا كبيرًا.

وقد أنس الجاويون إلى نوع واحد من الملاهي يطربون له ويفرحون، ذلك النوع هو «طيَّارة» من الورق الملون ينشرونها في الهواء بين الإعجاب والبِشر، فكبيرهم يملك طائرة، وصغيرهم لا بدَّ له منها، على أنَّك تلمح فوارق الناس فيها، تلمح طائرة الرجل الثري أو الطفل الذي يدرج في رحبة النعمة كبيرة الحجم جذَّابة المظهر، بينما تلمحها صغيرة ضئيلة في يد الفقير المُعدِم.

وعلى هذا فقد يكون من اليسير عليك أن تتعرَّف الثروة والإملاق من حجم الطائرة الورقية المحبوبة لديهم!

وبين المشاهد العجيبة المألوفة في هذه الجزيرة وفي نوع ملاهيها أن الأهالي ينتظرون يومي العُطلة العامة، الجمعة والأحد، فيكتظُّون في الفضاء الرحيب فريق منهم يحمل هذه الطائرات وينشرها في الأجواء، وفريق كل همِّه أن يشاهد وأن ينظر وأن يطرب نفسه بهذه السابحات في الجو تملأ فضاءه وتقفز في فسيح رحابه!

ويمكننا حين نعود إلى ناحية الثروة في جاوة وإلى ما أفاضت على الهولنديين من خيراتها أن نئُول هذا إلى كثرة الأيدي العاملة فيها وإلى ضآلة الأجور التي تُعطى لهم؛ فالأجانب الذين يتملكون أراضٍ شاسعة في هذه الجزيرة وفي أشباهها يعمدون إلى إصلاحها بتلك الأيدي التي لا تتطلَّب أجورًا كهذه التي يتناولها العامل الزراعي في مصر، نعم فإن العامل المصري يتراوح أجره في اليوم بين ستة قروش وسبعة، فإذا كان صبيًّا فإن أجره بين ثلاثة وخمسة، أما في جاوة فإن عاملها يتناول أقل من عاملنا اليافع بكثير!

وعلى هذا فقد تسنَّى للأجانب أن يُنتجوا محصولًا وافرًا من الأرز والشاي والبن دون أن يبذلوا في سبيل إنتاجه شيئًا يُذكر، وإلى هذا يعود ربحهم الكثير.

ولقد أدهشني أن تكون جاوة ذات المناخ الحار والهواء المُتوهِّج بلدًا صالحًا لإنماء كثير من الفواكه الحلوة الجميلة، وأن تكون بين فواكهها تلك الأنواع التي تجمع الذباب من حولها، فإذا تلفتتَ حواليها وأمعنتَ فيها لا تطلع بعد شديد بحثك وجسيم استقصائك على ذبابة واحدة!

ذلك أنَّ الهولنديين قد عرفوا بعنايتهم الطبيعية بكل ما يمس الصحة العامة كيف يبيدون الذباب من هذه الجزيرة وكيف يجعلون البعوض نادرًا جدًّا.

وما دُمنا قد طرقنا ناحية الزراعة في جاوة فإنَّا نذكر بإعجاب للحكومة الهولندية بالغ دقتها في مراقبة الزراعة العامة حتى أصبحت محصولات الجزيرة ذات أثر فعَّال في السوق الدولي وذات ثقة وافرة من جانب المستهلكين في العالم.

فالحكومة الهولندية قد أنشأت قسمًا خاصًّا بالمزروعات في مصلحة الزراعة، وقد غذَّته بمعامل التحليل الكيماوية رغبةً منها في اختبار البذور من أرز وبن وشاي وكاكاو، فإن وجدت فيها شيئًا من العطب أبادتها وأمرت الزُّراع أن يأخذوا بذورهم من النوع النقي الجيد، لا عجب في هذا فإن أوروبا لم تخلق أكثر دراية من الهولنديين في مستعمراتها التي تحوِّرها إلى جنات ذات أفنان.

وفي صَدَد الزراعة نذكر أنَّ النباتات تنمو في جاوة نماءً حسنًا، وهذا لوفرة الأمطار التي تؤدي إلى خلق حالة جميلة ممتعة بجوار ما تُؤدِّيه للزراعة، وهذه الحالة أنك لا ترى في الجزيرة أكداس التراب التي تتراكم في الطُّرقات وتذروها الرياح في أعين المارَّة.

ويأسف الجاويون لأن جزيرتهم كثيرة الزلازل؛ ذلك أنها وما حواليها من جُزر قد صبغت طبيعة أرضها بالطابع البركاني الذي تحدث عنه هِزَّات الأرض العنيفة، وقد لجأ الأهالي اتِّقاءً للخسائر وتجنبًا لفوادح الزلازل إلى منازلهم فابتنوها من «البامبوز»؛ لأن هذا النوع من الأخشاب حين يتصدَّع لا يحدث إلا قليلًا من الانحناء يسهل عليهم تقويمه.

وتُخالف منازل الإفرنج تلك الحالة التي أُقيمت عليها منازل الوطنيين، فقد أُقيمت بالطوب الأحمر على طبقة واحدة تُشبه ما عليه منازل الأمريكيين في جهات أمريكا البركانية.

إن البركان حين يثور يدع كل شيء رجامًا؛ يُحوِّل الجبل إلى رماد، ويُحول الغابات بأشجارها إلى هشيم تذروه الرياح، على أن السائح الذي يُشاهد تلك الأكداس التي خلقها البركان الثائر حين تُطاوعه الأقدار في العود إلى جاوة مرة أخرى لرأى ما يُدهش اللُّب ويُحيِّر الجَنان، لرأى أنَّ عناية الحكومة وكثرة العمال قد أحالت الهشيم جنات، والرماد غابات فاتنات كأنَّها لم تُحرَق، ولم تمتد إليها يد النار!

في وسعنا أن نشبه جو جاوة — دون أن نُخطئ في التعبير — بأجواء الصوبات — المنازل الزجاجيَّة — التي توجد في أوروبا، فقد جمع الله إلى جاوة النور والشمس والجو غير المُتقلِّب والماء القَراح، وقد ألبس تربتها حُلَّة من الخصوبة وتلك عوامل تهيِّئ لنباتاتها النمو المضطرد السريع.

ولعل الظاهرة الوحيدة التي لا تُبدَّل ميزاتها ولا لونها بتبدُّل الفصول هي ميزة المناخ الجاوي فإنَّه لا يزيد عن ١٠ درجات في الصيف والشتاء، وهذا ما يجعل جوها بعيدًا عن موطن البرودة، قريبًا من أن يكون صيفًا معتدلًا طيلة العام.

ولأنَّ مياه الأمطار — كما يقرِّر النباتيون — هي خير ما يُغذي النبات ويدفع إليه القوة والحياة، فإن كثرتها في جاوة دليل ينهض بوفرة تقدُّمها في هذا الضرب من ضروب الإنتاج الجميل.

وفي مقدورنا أخيرًا أن نُؤكِّد بأنَّه لا توجد آبار أو منابع تُجدي على النبات وتُهيئ له أسباب النشاط في نموه، لا توجد هذه الآبار والمنابع على تلك الميزة إلا أن تكون في جاوة دون ممالك العالم جميعًا.

تلك كلمة جامعة تُحيط في كثير من الإجمال ما تذخر به مذكراتنا من إسهاب نرجو أن يُؤدي إلى الغاية التي ننشدها من تحقيق بعيد عن الإغراق بعيد عن المغالاة.

٣ أغسطس سنة ١٩٢٩

في ميناء «مكاسار» أمام جزيرة «سيلابس».

الساعة الخامسة والنصف صباحًا.

نطالع الآن أنفس منظر من مناظر الطبيعة في ذلك الوقت الباكر، فأمامنا مشهد الشروق ببهجته وروائه تتحوَّر ألوانه وتتبدَّل مرائيه، فإذا كانت الشمس تنسج وشاحها الأول رأيت السماء في لونها الياقوتي البهيج، حتى إذا ما تعددت الألوان وتزاحمت الصور شهدت السماء وقد لبست إهابًا ذهبيًّا وهَّاجًا لتبدو لك بعد فترات زرقاء الأديم، فما أحفل ما يغمر النفس من جلال هذه الصور المتحركة بيد الله القدير!

وعلى الرغم من أن الميناء لا يقع على بوغاز فإنه يتراءى للناظرين على حُلة جميلة رائعة.

فسواحلها المُوشَّاة بالسُّندس المزركشة بالخُلجان الصغيرة الجميلة، تلك السواحل التي تُشبه نظائرها في شمال أستراليا، وهذه الجزر الصغيرة التي تزهو بالخضرة والأزاهير، وهذه السهول المُنبسِطة التي تتألف منها «مكاسار» يحيطها البحر من جانب وتحرسها الجبال الشوامخ الرواسخ من جانب آخر، كل هذه المرائي الطريفة والمشاهد الجميلة، آيات تغمر النفس بفيض من البهجة وصيِّب من الحبور.

كانت السماء عند مَقدِمنا إلى الميناء تتزيَّن صفحتها الساجية بذلك اللون الأصفر، لون العصفور «كناريا»، وكانت الشمس كلما أخذت سبيلها إلى الحياة والتألُّق كلما سترت بنقابها الأبيض البهيج ذلك اللون الصفراوي الفاقع، حتى إذا استدارت دارتها، ونزحت عن الأصداف دُرَّتها رأيت الزُّرقة الصافية والفتنة الضافية، والصحو البالغ والجمال المزدهر، يشعُّ على كل كائن، ويبعث الحياة في كل الوجود.

ولقد شهدنا على شاطئ البحر أشجارًا كثيرة أحفلها على جانبه شجرات «جوز الهند» كما رأينا عديدًا من «القوارب» السابحة في لُجَّة اليم، وقد امتلكها الصيادون الذين اتَّخذوا من أسماك البحر حِرفةً يبلغون منها مآربهم في العيش، فأما هذه القوارب فإنها فلائك طويلة ورفيعة ترتكز من جانبيها على خشب طويل مرتبط بعمودين كمِسند لها من جهتيها، وأما قلوعها فإنها على نسق من قلوع المراكب الصينية التي هي عبارة عن قَلْع مُربَّع من الأمام.

في الساعة السادسة والربع قدم رئيس البوغاز، وفي الساعة السابعة كانت الباخرة قد ألقت مراسيها واستقرت على الرصيف فتناولنا طعام الإفطار على سرعة أحدثتها رغبتنا في التنزُّه داخل المدينة، وكان مما أُشِير به علينا أن نُشاهد شلالًا يبعد عنها باثنين وأربعين كيلو مترًا.

ولقد تعرَّفنا برجل تدلُّ سَحنته عن كثير من الذكاء والفِطنة، فحين سألتُه عن دخول المدينة وعمَّا إذا كنا بحاجة إلى جواز سفر خاص كان جوابه أنه لا حاجة بنا إلى ذلك، ثم علمت بعد ذك أنه صاحب فندق يُدعى Orange.

وجاءنا ممثل «كوك» في «مكاسار» وأخبرنا أن سيارة قدم بها على الرصيف قد أُعِدَّت لتكون تحت إمرتنا، فأسرعنا في النزول، وبدرت عندي خاطرة أحسبها جديرة بأن تلابس كل سائح في بلد لا يعرف مسالكه ولا نواحيه.

تلك هي أني شئتُ أن أكون أول الذين يأخذون طريقهم إلى المدينة حتى لا نُصاب بوابل التراب الذي يتطاير من ازدحام السيارات السائرة أمامنا، ثم هناك سبب آخر لا يقلُّ أهمية عن سابقه، وهو أن يتسنَّى لراكب السيارة الأمامية أن يجد من خلفه سيارة تُسعفه إذا ما أُصيبت سيارته بسوء، أما إذا كان من المتأخرين فإنه يصعب عليه أن يُنقذ نفسه.

ووقفنا في الميدان الكبير لملء مخزن البنزين، ثم مررنا في طريق تحفُّ على جانبيه أشجار «الفيكوس» المرتفعة الشامخة.

وفي آخر المدينة شهدنا مقابر المسيحيين تُجاورها مقابر الصينيين، ثم انتهينا إلى أرض نائية عن المدينة تملؤها أشجار الغاب Bamboo.

أما منازل الأهلين وأكواخهم فإنَّها قائمة على عَمَد مرتفعة ذات منظر بهيج.

وأما شجر الأثمار فيانع كثير، وأجزل ما تشاهده كثرة وإنتاجًا في جوانب المُستنقعات وعلى حواشيها، وأغزره شيوعًا في هذه الأصقاع «جوز الهند» والموز.

مررنا بعدئذٍ على «كفر كبير» وأمتع ما أخذنا في أهله أنهم لا يرتدون من الملابس غير «الفوط» الزاهية اللون، وأنهم يتدثرونها في مواضع العفة، تاركين ما تبقى من أجسامهم دون أن يسدلوا عليها إهابًا.

وبعد أن اجتزنا عشرة كيلومترٍ بين غابات وأشجار، ألفينا أنفسنا وسط سهول رحيبة أجزل مزروعاتها الأرز، يعمل في حصاده الأطفال والنساء، إلى ذلك ما شهدنا فيها من حيوان «الجاموس» الذي يُقزِّزك فيه ولا يسرك منه بشرته البيضاء، وأنفه الذي يشبه أنف الخنزير.

وقد اجتزنا بعدئذٍ بلدانًا كثيرة، وأنهارًا صغيرة حتى طلعنا على بقعة جبلية وقع نظرنا فيها على كثير من المنازل التي بُنِيت من الحجر وقيل لنا إنها تتبع الحكومة وأن بها أمكنة السجن، وإن المناظر في هذا المكان لجميلة ورائعة، فهذه الصخور الحجرية المديدة التي يبلغ اتِّساعها من مائة إلى مائتي متر، والتي تملؤها النباتات المتنوعة، تلك الصخور من الطباشير.

لقد زيَّنها السيل بكثير من الخطوط والتجاويف يحسبها الرائي نقوشًا أبدعتها يد الصانع، وهذا ما يزيدها رواءً وفتنة.

وفي مناسبة السيول يجدر بي أن أُقرر حقيقة الطبيعة في تلك الجزيرة، فإنها غزيرة المطر كثيرة الشجر حتى عاف التراب أديمها.

وترى فيها أوراق الأشجار تزهو وتلمع فتخالها على حال مرضيٍّ حسن، بينما يُدهشك أني لم أُشاهد شجر الموز دون أن يكون له ورق طويل ومقطوع كما شاهدت في تلك الجزيرة، وأن ارتفاع شجر «البوسيانس» يبلغ إلى عشرين مترًا حتى ليعلو المانجا الكبيرة التي تكثر في أفريقيا والهند.

ثم انتهينا إلى «الشلال» الذي أُشير علينا بشهوده ودخلنا في مضيق لرؤياه فإذا هو في الحق دون ما تصوَّرنا، ودون ما سمعنا عنه بكثير، على أنا قد استعضنا عن مشاهد الشلال بمناظر الطبيعة الخلَّابة التي غمرتنا طوال نُزهتنا، وبعد أن مكثنا قليلًا قفلنا عائدين، فصادفنا في طريقنا أولئك السائحين الذين قدموا بعدنا لمشاهدة ذلك الشلال.

إن الفلاحين هنا يحملوا بضائعهم على عِصيٍّ من طرفيها تُوضَع على أكتافهم، وذلك هو شأن الصينيين في هذه السبيل، أما خَيْل هذه البلاد فصغيرة الحجم، وأكثر ما يُستعمَل فيها من حيوان هو الجاموس، كما أن أبناء الصينيين يغمرون بكثرتهم البقاع والأصقاع.

عُدنا إلى المدينة ومكثنا بُرهة في فندق Orange أخذنا خلالها القهوة، ثم دفعنا أُجرة السيارة ورجعنا راجلين إلى المركب، وكان الوقت حينذاك الساعة العاشرة والربع صباحًا، فشعرنا بوافر من الحرارة أحدثها وهج الشمس وجسيم لظاها.

وفي الساعة الرابعة مساءً تحرَّكت الباخرة بعد أن تسلمت البريد الذي جاءت به إليها سيارة ربطت على مقدمها «العَلَم التركي»، ومن العجب أن نشهد في جزيرة نائية كجزيرة «سيلابس» منظر «العَلَم التركي» يرفرف في أجوائها البعيدة، ولكنها عروة الدين تربط الممالك، وتُهيئ للناس قِبلةً واحدة يتولون شَطْرها من كل فجٍّ.

وكان معنا في الباخرة واحد من كبار الموظفين الهولنديين في جاوة، بينما كانت تزخر بجمهرة من أعيانها وتجارها جاءوا على رغبة توديع أصدقائهم النازحين وقد بدت على رءوسهم العمائم، مما يدل على أنهم من المسلمين.

ولقد حاولت أن أتحدث معهم بالعربية على أنه ظهر لي أنهم في ضربها على كثير من الجهالة إلا واحدًا منهم تمكَّن أن يعرفها وهو تاجر يمني وكهل كبير.

عندما دقَّ ناقوس الباخرة إيذانًا بإقلاعها من الميناء شاهدنا كثيرًا من الأطفال الفقراء يعدون تجاه الباخرة على الرصيف رجاءً منهم أن يُصيبوا ما عسى أن يُلقيه الراكبون من نقود تعولهم وتُفرحهم، ولقد بلغ عديدهم ثلاثمائة شخص بينهم حشد ممَّن قدموا لمشاهدة الباخرة والتمتُّع بمناظرها، فإن البواخر لا تقدم ساحلهم إلا كل أسبوع فانتظارها والاختلاف إليها عمل مُطرِب جميل.

وقد سحب الباخرة رقَّاص به رئيس البوغاز لمناسبة امتداد الرمال داخل البحر حتى ليسهل عليك أن تسير على قدميك أميالًا عشرة دون أن تجد عُمقًا.

وها هو النسيم يهبُّ والباخرة تتحرك والسرور السابغ يُحيط نفسنا ويُفعم قلبنا، وذلك اليوم الممتع وما شاهدنا فيه من مباهج ليجعل حقًّا صريحًا كل ما تحدث به السائحون عن هذه الجزيرة الجميلة وعن مرائيها الجذابة الرائعة.

٤ أغسطس

نحن الآن في غمرة اللُّجَّة، تسبح باخرتنا على صفيحة اليم، والهواء المُندفع من خلفها إلى ما تفرَّدت به من سرعة بالغة قد أحدث غير قليل من الضيق، إلى ذلك وفرة الحرارة ووهجها وشدَّتها.

وفي المساء أقاموا مَقصِفًا فاخرًا لمناسبة وصولهم، وقدم الطعام كدعوة من القبطان، وأداروا كئوس الشمبانيا على السائحين، وأتاحوا لكل منهم أن تُصيبه هدية جميلة من الشركة الهولندية التي تبعها هذه الباخرة كتذكار للسفر والمسافرين.

ولما كنت لا أحتسي الشمبانيا، ولم أتعرَّف من قبل إلى القبطان، فقد أسرعت جهدي في تناول الطعام حتى يتسنَّى لي أن أدع ذلك الازدحام الهائل والضجَّة العالية والضجيج المُفزِع، وحين انتهى الطعام بدأت حفلة الألعاب الرياضية مشوقة طريفة، ثم انتهت بما أخذه الفائزون من جوائز.

٥ أغسطس

استيقظتُ في الصباح الباكر وكانت طبيعة الجو مقرورة تنفث الزمهرير، وبعد أن أديت فريضة الصلاة، وتلوت ما تيسَّر لي أن أتلو من القرآن الكريم وفاقًا لما رضتْ عليه نفسي من أمد بعيد، تناولت طعام الإفطار، ثم علمتُ أن الباخرة قد ألقت مراسيها على ثغر «سورابايا» فأما ثغر «سورابايا» فإنه أكبر موانئ التجارة في الجانب الجنوبي الشرقي من الجزيرة، وأما ما يُرجى له من مستقبل فإن بوادره تدلنا على نجاح باهر؛ ذلك أنه أول ميناء يصل إليه القادم من أستراليا والجُزر الجنوبية التي تتبع هولندا؛ وذلك أنها قد استعدت بمعاملها العديدة لتُهيِّئ طريقها المُعبَّد بين الثغور الممتازة، وحسبها ما يتحدَّث به المتحدثون عنها من نوالها هذه المنزلة الرحيبة في التقدم والنجاح في مثل ذلك الزمن الوجيز.

وقدمنا إلى الباخرة مندوب «كوك» وقدَّم لنا رئيس فندق أورانج الذي رغبنا النزول فيه.

وكان مما أردناه أن نغادر الباخرة قبل أن تطأ الأرض من ركابها قدم نزوحًا منا عن مغبة الزحام، وهكذا كنا أول من أخذ طريقه إلى اليابسة بين السائحين جميعًا، فمررنا بالجمرك وأرينا رجاله الجواز الذي أخذناه من السفير الهولندي في مصر كتوصية لهم من جانبه على أن يُسهلوا أمامي من إجراءاتهم.

ولقد تقدَّم إليَّ واحد من الموظفين يسألني في أدب جمٍّ عمَّا إذا كنتُ أحمل معي سلاحًا، فلما أجبته بأني لا أحمل غير «روفلفر» صغير كان من شأنه أن أخبرني في كثير من الاحترام أنه من المحظور على أي قادم أن يدخل الجزيرة ومعه أي نوع من أنواع السلاح ولكنه عاد فرجاني أن أنتظر خمس دقائق حتى يُشير على رئيسه في الأمر جنوحًا عن المسئولية

ورغبة في ألا يزيد في هذه المسألة تعقيدًا؛ لأن واجبه الرسمي يُحتِّم عليه مصادرة السلاح فورًا.

فلما ذهب إلى رئيسه وأظهره على الخبر، وأفهمه أني أحمل جواز توصية من السفير إلى ذلك ما أحمل من جواز «سياسي» أمر رئيسه في الحال بمروري موفور الإكبار، محوطًا بكل عناية، على أنهم كتبوا إليَّ ألا أبيع «الروفلفر» في «جاوة»، ومن البديهي أني لم أكن لأود بيعه كما يتوهَّمون.

لقد يجدر بي أن أُثني على ذلك الموظَّف لأدبه وذكائه، وعرفانه لواجبه واضطلاعه بأعبائه في كثير من العذوبة التي خلعها عليهم حب النظام واحترام مشاعر الناس على صورة لا تأنف منها الواجبات ولا تحيطها شناعة الإهمال في العمل ثم أخذنا سيارة وذهبنا إلى الفندق.

تبعد الميناء عن المدينة خمس عشرة دقيقة بالسيارة، طريق ممهد مفروش بالمكدام ومموه بالأسفلت، تقف على جوانبه الأدواح الكبيرة، فإذا أمعنت في ذلك الطريق المُنسَّق وفي الشجر الوارف الظليل لَمَلَأَتك غبطة المنظر البهيج جمالًا وحبورًا.

أما شوارع المدينة الكبرى فعلى خير ما تنشد من نظافة هي ميزة الهولنديين في كل فجٍّ، تحيطها الحوانيت المنتشرة والأشجار المزدهرة، ولكن اليوم هو «يوم الأحد» فليس ثمة من حانوت يفتح بابه أو يستقبل زائريه.

وبلغت دهشتي منتهاها في نظافة الهولنديين حينما رأيت الفندق الذي نزلنا به، فهذا هو النظام الجميل وذلك هو المنظر الذي لم أشهده من قبل.

إنه فندق كبير يتألف من طابقين ويجمع إليه فناءين زُركِش أديمهما بالزهر الناضر وسبحت في سمائه الدَّوْح، بينما كل حجرة من حجراته تزينها «فراندة» خاصة جميلة مُوشَّاة.

وتقع البناية الوسطى التي تتألف من الطابقين بين هالة من البهجة تحرسها بنيَّتين من طابق أرضي عن اليمين والشمال، جعلتا على منظر «الفللا» لكل منها ثلاثة حجر للنوم يجاور بعضها بعضًا حتى يكتنفها الهواء المُتجدد عندما تفتح الأبواب.

وأمام كل منهما «فراندة» تُشبه الصالون الصغير مكشوف من أمامه وخلفها دورة المياه.

وفي الساعة الثامنة والنصف وبعد أن أرسلتُ برقية إلى سمو الوالدة أُنبِّئها بوصولي إلى جاوة أخذتُ سيارة للتجوال بها في المدينة ورؤية مشاهدها.

أعجبتني «سوربايا» من وجوه كثيرة؛ فمساكنها الإفرنجية التي تتألف عادة من طابق واحد أو من طابقين، وهيكلها الصغير المنسق وفضاء الحديقة الوافر الجمال وروعة النظافة التي تأخذ اللُّب، كل هذه الصور تُحرك في النفس كامن الغبطة ودفين السرور.

وتُدعى هذ البيوت «بنجالو» وإذا كانت «جاوة» قد طبقت شهرتها النباتية الآفاق، فإن الأشجار التي تُحيط بالشوارع لدليل حاسم على أنها صعيد النبات الخصيب.

ولما أمتعنا الطرف بمباهج الأحياء الإفرنجية رغبنا أن نتصل بالأحياء الوطنية ومساكن الهنود حتى نشهد مناظرها، فإذا هي ويا للأسف تُعبِّر عن بالغ الضَّعَة وجسيم الإملاق، هي وضيعة في معالمها الدارسة، وفي أطلالها العافية، على أنها من وجهة الفقر ليست أكثر حظًّا من مثيلاتها في الشرق، بل إنها لتقل عن كثير من الأحياء الشرقية البحتة التي شاهدناها في أدوار الرحلات، وذلك لما تُعنى به الحكومة الهولندية في صوب الصحة والنظافة.

وعند أوبتنا إلى الفندق في الساعة العاشرة بدأت وهجة الشمس تُكسِب الجو طبيعة حارة لاذعة، فتناولنا الطعام شهيًّا سائغًا مُتقنًا بعد عشرة أيام كان طعامنا طوالها في الباخرة قديمًا لا يحرك في النفس عوامل الراحة، ولا يُذهب عنها بواعث النفور، ثم آويت إلى فراشي نُشدانًا للراحة من وعثاء السفر الطويل.

ويجدر بي أن أقول إن الإفرنج في هذه المدينة لا يدعون منازلهم أو متاجرهم بين الساعة العاشرة والنصف صباحًا وبين الرابعة مساءً، فلا ترى واحدًا منهم يجوب ناحية من نواحي الشوارع إلا أن يكون باعثه على ذلك أمرًا خطيرًا؛ لأن الحرارة شديدة بحيث لا يتحمَّلها واحد من البِيض في هذه الساعة اللافحة، وأول ما لا حظته تلك السَّحْنة الزَّريَّة التي تبدو على وجوه الأهلين، وهذه الدمامة البالغة التي تحف بسيماهم، وذلك النحول الهائل بأجسامهم، وذلك الضعف والهزال الذي يغمر هياكلهم، كما أنني لم أشهد من بينهم واحدًا تبدو عليه حالة الشيخوخة، فكلهم في الحق قِصار صِغار، على تناقض من الصينيين الذين يفوقونهم في القوى والذين يؤلفون جالية كبيرة لها شأن في ثروة الجزيرة بما تضم إليها من التجار الكبار المشهورين.

وأدهش ما عجبتُ له أنه مع وجودنا في بلد إسلامي، ومع شهودنا لبضعة من المساجد الصغيرة والمدارس الإسلامية فإن أهمية الإسلام هناك حديث لا شكَّ أنَّ المسلمين يتحسَّرون لسماعه والإنصات إليه.

وفي الساعة الرابعة غادرنا الفندق في سبيلنا إلى التجوال مرة أخرى بالمدينة، على أن بعضهم أشار عليَّ بأن يحسُن بي أن أذهب إلى مكان يُدعى «جريز» يبعد خمسة عشر ميلًا إنجليزيًّا عن «سورابايا» حتى أشاهد هناك الأهالي وهم يُربُّون الأسماك على شاطئ البحر.

أما السيارات فإنَّها من النوع الأمريكي المنتشر هنا انتشاره في أستراليا، وكانت سيارتي من طراز «بويك».

وعلى الرغم من أن البلاد الجاوية شديدة الحرارة لافحة الأوار، فإن شيئًا من التراب قلَّ أن يبدو على أديمها؛ ذلك أن المطر الذي لا ينكف عن الهطول بها كل يوم قد أباد التراب وقضى عليه، وإنَّ هذا الشأن لمَّا يسرُّ السائح الذي يشاء التجوال بسيارته حتى ولو كانت السيارة مكشوفة لا ستر لها.

ولقد لاحظنا في طريقنا إلى «جريز» أن القوم هناك يُكثرون من زراعة الأرز، كما مررنا في طريقنا على غابة جذَّابة المنظر، فاتنة الرواء، وهنا بدرت لنا فكرة الذهاب إلى «كفر جيرى» حتى نزور قبر «مقلنا ملك إبراهيم» ذلك الرجل العظيم الذي يُقدِّس فيه الجاويون ذكرى أول رجل مسلم دخل أصقاعهم ونشر فيها تعاليم الدين السمح الحنيف، فلما ذهبنا إلى «جيرى» تأكَّد لدينا أن مقبرة الرجل في بلدة تدعى «جريز» فأخذنا معنا أحد الصبية الوطنيين ليؤدِّي مهمة الدليل، واقتعد مع السائق أريكة القيادة في السيارة، فعندما أشار الصبي بوقوف سيارتنا كنا أمام أطلال دوراس تشبه في نسقها المعابد الهندية، فحسبت الدليل الصغير قد ضلَّ الطريق وحادَ عن الهدف، ولكنا وجدنا حشدًا حافلًا من مقابر المسلمين كان لنا حظ التوفيق في زيارتها والاعتبار بما تضم بين صفائحها.

ويا سبحان الله!

إن منظر المعابد الهندية ليدع في النفس حالة قد لا يُهيأ له شهودها في سواها حالة من الروعة الصامتة والخشوع الهادئ، تمدها إلى الجِنان تلك العناية التي التفت حواليها فأبدعت في حواشيها ونمَّقت في نواحيها، فإنك تراها إما وسط غابة تحفُّ أشجارها على جُدُرها، وإما على حافة بحيرة تدفع صفحتها المنبسطة إلى جلالها جلالًا مديدًا، بينما تقف على أرجائها أشجار «الفيكوس» الضخمة تلك الأشجار التي تبلغ سنَّها بين مائة وبين مائتي عام، تبدو لك جذورها المتعددة وكأنَّها عظام الموتى.

ولقد قيل لي إن هذه الأشجار التي تجاور تلك المدافن تبلغ من العمر ما بين ثلاثمائة وأربعمائة سنة.

وفي الحق إن مشهدها أكثر هيبة وأجزل مكانة من مشاهد أخواتها اللاتي يُظلِّلن المعابد السفلى.

لقد أهاب بي ولعي بالنباتات أن آخذ من وقتي فترة رحيبة أُمتِّع الطَّرْف فيها بعظمة هذه الأشجار.

وفي مقدوري أن أُصرِّح بأن أكثرها بهجةً وأجلَّها صمودًا إلى النفس وركونًا في الشعور إنَّما هي فصيلة «الفيكوس».

وقدمنا شيخ عجوز مكتهل وفتح أمامنا الباب، ولشدة ما أسفنا لحالة القبر، وتألَّمنا لشأنه؛ فإنه أثر عافٍ ومعلم دارس، وأنقاض لا تُفصح لرائيها إلا عن بالغ الحسرة بينما يعمر جاوة ثلاثون أو أربعون مليونًا من المسلمين لم يهتف بينهم واحد بدعوة تُصلِح من هذا الرجام وتُعيد إليه من الجدة ما يحدث عن جليل شأن ساكنه العظيم.

وتلك هي حالة الشرق، يصرخ بنوه رغبة في الإصلاح، وينشد أهله كل عمل منتج، ويضجُّون في مجالسهم بكثير من الجدل ووافر من الحديث الشيِّق بينما تجمد أعصابهم وتغلق أفواههم إذا دُفِعوا إلى العمل الصالح؛ لأنه سيأخذ من همَّتهم ويُبيد نذرًا من نقودهم!

إن هذه المقابر التي شاهدتها ككثير من مثيلاتها في كل بلد إسلامي تملأ جوانبها النقوش، فهنا تقرأ تاريخ الأموات وأسماءهم مكتوبًا بالخط الثُّلُث.

كما تقرأ بالخط الكوفي على كل قبر كلمة «لا إله إلا الله هو القادر» في حين أن واجهة القبور قد كُتِب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إلى ذلك جوانبها التي نُقِشت عليها آية الكرسي في كثير من العناية والإتقان.

غير أن الأحجار قد ذابت من كثرة المطر، وانمحت هذه الكتابة إلا القليل الذي سيندثر دون ريبة إن لم تقم عليها الستائر لتقيها التلف.

وليست إقامة الستائر على القبور بالأمر العجيب، إنما العجيب والمُؤلم حقًّا أن يذهب الزمن وتذهب عوامل الطبيعة بهذه النقوش التي نضعها في قيمة الوثائق التاريخية المجيدة، تُنبئ عن عظائمهم، وتُحدِّث الأجيال عما كانوا يعملون.

وأعود مرة إلى الشرقيين فأذكر لهم في جمٍّ من الأسف ضئيل عنايتهم في ذلك السبيل وقليل اكتراثهم لأداء عمل قد لا يُكلِّفهم كثيرًا، بينما يحفظ لهم إذا أدوه سلسلة مرتبطة من حلقات تاريخيهم قد ينفعهم استوعابها يومًا.

لقد وقفنا حِيال هذه المقابر أنا وسكرتيري أحمد مختار ورفعنا أيدينا إلى السماء نستمطر الله سحائب الرحمة على إخوان لنا في دينه القَيِّم، ونقرأ الفاتحة على أرواحهم التي ذهبت جوار ربها، وكان من بواعث الغبطة أن نؤدي ذلك الصنيع لقوم جاهدوا ملء جهدهم وجالدوا ملء قوَّتهم في سبيل الإسلام حتى رسَّخوا من دعائمه ورفعوا من هامته.

ثم أعطيت العجوز «واحد جلدر» وهو نوع من العملة تساوي «جنيه إنجليزي» ففرح وطرب لأن لهذه القيمة شأنها مع الرجل الفقير.

ثم رجعنا إلى السيارة، وأخذنا سبيلنا في العودة إلى المدينة في طريقنا الذي سلكناه في الذهاب.

وأمرت السائق أن يمر بنا على حي العرب في «سورابايا»، فإذا بهم ظاهرون بسيماهم ولونهم الفاتح عن الجاويين ووجههم الصبوح الجميل، وإذا بأكثريتهم تُزاول التجارة وتجارة الأقمشة «المانيفاتوره» بنوع خاص إلى هذا ما يمدُّون به الأهالي من مال يقرضونه لهم بالربا.

وعلى الرغم من كسبهم ومن ربحهم الكثير فإن الصينيين أحسن منهم حالًا وأكثر رَغَدًا، ولقد ألفيت في طريقي أبنية كُتِب عليها «مدرسة الإصلاح والإرشاد» ولكن يلوح لي أن القوم فقراء، وأن مقدرتهم على العمل المُنتِج مقدرة ضئيلة لا تحدث أثرًا ملموسًا.

ثم عدت إلى الفندق، وتحدَّثت لصاحبه عن زيارتي قبر «مقلنا إبراهيم» فأنبأني أن دليلنا قد ضلَّ بنا الطريق، وأن ذلك القبر الذي شهدناه ليس بقبره!

إن حالة الأهالي تدلنا على أنهم فُطروا على البساطة والسِّلم، وتحدثنا بأنهم جِدُّ فقراء لا شأن لأكثرهم ولا صناعة إلا مزاولتهم لخدمة الأجانب خدمةً يؤدُّونها بكل أمانة وجهد في سبيل أجر تافه ومال قليل.

٦ أغسطس

كانت ليلتنا في ذلك الفندق رديئة تُنذر بعدم الراحة وتجتوي بالهناءة؛ فحرارة الجو قد بلغت منتهاها ومراتب السرير جامدة صُلبة محشوة بالقش حتى تكون ضد استجماع الحرارة على جسم النائم، وليس ثمَّة من غطاء غير السقف، وعلى هذا فإني افتقدتُ النوم طيلة الليلة لأن عوائدي لا تتَّفق وذلك النظام الجديد.

وكانت رطوبة الجو التي بلغت نهاية الفزع قد أكدت لدي أني لن أغادر الفندق إلا مصابًا بالروماتيزم ولكن الله سلَّم.

وفي الساعة الثامنة صباحًا جاء رجال الفندق ليأخذوا متاعنا إلى محطة السكة الحديد، وفي التاسعة والنصف غادرنا ذلك الفندق يُرافقنا واحد من موظفيه، وكان حظنا في ذلك الموظف الحظ الضئيل الأقل فإنه لا يعرف لغة أجنبية، وهكذا كان التفاهم معه مستحيلًا صعبًا.

وأخيرًا وصل القطار في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وكان دخولنا إلى عربة الدرجة الأولى في القطار أشبه شيء بالهجوم والقفز مخافة أن تكون مليئة ومكتظَّة، ولكنا سُررنا عندما تبيَّن لنا أننا فيها دون شريك.

ولكن الكمساري قد أخبرنا بكل أسف أن هذه العربة ستترك القطار وأنه يتعيَّن علينا أن نُغادرها إلى سواها، فألفينا العربة الثانية للدرجة الأولى ولا فراغ فيها، ولا موضع قدم، فاضطررنا إلى أن نأخذ مكاننا في الدرجة الثانية على الرغم من أننا نحمل تذكرة للدرجة الأولى، ولبثنا كلما أقفر مكان من صاحبه ننتقل إليه حتى أُتيح لنا أن نستريح.

إن المناظر على جوانب القطار جميلة وممتعة، والأراضي كلها مزروعة بإتقان، وتكثر في هذه الناحية زراعة القصب وهو طويل رفيع، ولقد شهدنا عديدًا من «الفابريكات» قيل لنا إنها معامل للسكر وإن ذلك القصب يُزرَع من أجلها.

ثم جاء موعد الغداء فتناولناه بالقطار، ولأن قائمته كانت مكتوبة باللغة الهولندية فقد أصبح لزامًا علينا أن نُترجمها حتى نختار من ألوانها ما نريد.

سولو

ولقد مررنا في طريقنا على مدينة «سولو» عاصمة «سلطنة» ويُقال إن حاكمها رجل مسلم، وهذه المدينة يبلغ تعدادها مائة وأربعين ألف نسمة، بينهم ألفان وخمسمائة من الأوروبيين، ويرتدي أهلوها وأمراؤها الأقدمون أردية الوطن القديمة حتى لقَّب الجاويون تلك البقعة من جزيرتهم «جاوة الأصلية» وهم ينظرون إلى سلطانهم وكأنه الحاكم بأمره؛ عليه أن يأمر وعليهم أن يُنفِّذوا أمره دون لجاجة أو استخذاء.

على أنَّ الحركة الأخيرة التي قامت من جانب الجاويين ضد «هولندا» قد ألجأت هذه الدولة على أن تقصَّ من أطراف السلطان، وأن تقلِّص من ظله وتُضعف من سلطته.

يعيش السلطان في سرايته التي تُتاخم دورًا أُنشئت لكبار الموظفين، ولجملة من أقاربه يُحيطهما سور عالٍ كبير حتى ليتراءى للناظر أن هذه الدور قسم قائم بنفسه في تلك المدينة، وإذا شاء أحد من السائحين أن يشهد «سراي الحاكم» تمكَّن له ذلك إذا أذن له موظف هولندي كبير.

وتجمع «سولو» بضعة من الشوارع الجميلة التي يظللها الشجر الوارف إلى ذلك بضعة أخرى من الشوارع التي تجري عن يمينها وشمالها تُرع صغيرة ذات ماء رَقراق، فإذا أراد أحد أن يأوي إلى بيته في تلك الشوارع أو يخرج منه تسنَّى له ذلك بواسطة قناطر صغيرة.

ولقد شهدت بعضًا من ممثلي «السِّرك» يؤدون ألعابهم في الشوارع.

وترى هنا كما ترى في الصين أن عظماء الرجال لا يؤدون نزهتهم خارج منازلهم إلا وقد ساروا خلف واحد من تابعيهم يحمل مظلَّة ذلك العظيم في يده دلالة على أن سيده من طبقة نبيلة ممتازة.

وحركة التجارة في «سولو» على ما يبدو لي منتعشة جدًّا؛ فقد شهدت بها دكانًا يدعونه بالهولندية Bazar «بازار» وفي الحق إنه مليء بأشتات المصنوعات الوطنية التي تنتجها هذه البلاد.

وهذه الدكاكين تقع تحت رقابة الحكومة الهولندية، وعلى هذا فقد يندر التلاعب في الأسعار، وأجمل ما تؤديه الحكومة تشجيعًا لهذه الصناعات أنها توحي إلى أصحابها أن

يبيعوها بثمن لا جشع فيه ولا طمع حتى يتهيَّأ لها الرواج والذيوع، وحتى يُقبل المستهلكون على شرائها آمنين الغُبن الفادح مطمئنين إلى أنهم قد أخذوا السلعة بثمنها الذي يجب أن تكون عليه.

جوكجه

ولقد قيل لي إن ذلك الشأن المحمود تؤديه الحكومة في مدائن الجزيرة كلها.

وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين وصلنا إلى جوكجه، ويجمُل بي أن أُسجِّل بأن القطار كان سيره بطيئًا على الرغم من أن الأرض التي يدرج عليها أرضها منبسطة لا وعورة فيها.

وكان في انتظارنا على المحطة أحد موظفي الفندق الذي سننزل فيه، وقيل لي إن ذلك الموظف يعرف إحدى اللغات الأجنبية، فكان سروري به جمًّا عظيمًا، ولكني ألفيته لا يعرف إلا كلمة yes فإذا سألته عن شيء أجابني بها، وإذا استوضحته عن أمر كانت هي كل خطابه.

وأخذتُ «الأمينوبوس» الذي يرسله الفندق إلى المحطة لاستقبال ضيوفه فوصلته بعد دقائق.

إن الفندق الذي نُقيم فيه «جراند أوتل» ليُعد من أكبر فنادق المدينة وأفخمها، ولقد أعدوا لمقامنا فيلًا صغيرة، على أن الفيلات هنا أقل شأنًا من مثيلاتها في «سورابايا».

وأول ما أخذنا به أنفسنا بعد وعثاء السفر الطويل هو أن نُزيح أوضار الطريق بالاستحمام، فكل بلد حارٍّ يجلب في النفس شوقًا إلى الماء وحنينًا إليه.

وأغلب الظن عندي أن الاستحمام بالماء مرتين أو ثلاث قد لا يُشبع رغبة النفس في اتِّقاء هذا الهجير.

والحمَّامات هنا لا تُشبه الطراز الأوروبي بل هي شرقية رومانية قديمة تتكوَّن من حجرة صغيرة، في أحد أركانها «ماجور» تعلوه حنفية ماء بارد؛ لأن المياه الساخنة لا تستعمل في جاوة إلا لطهي الطعام.

وعلى المستحم أن يملأ ذلك «الماجور» ثم يمسك كوز الماء بيده ويزاول عملية شاقَّة في صبِّه على جسده، حتى إذا ما انتهى كان عليه أن يُدلِّك جسمه بالصابون ليعاود مرة أخرى عملية الكوز، وهكذا دواليك حتى ينتهي من ذلك العمل الشاق.

«جوكجه» هي المدينة السادسة بين المدن الجاوية، وهي العاصمة كما أنها تبعد عشرين ميلًا عن ساحل المحيط الهولندي، تصلها «بتافيا» بالسكة الحديدية، وقد أُنشِئت محطتها في وسط المدينة وعلى مقربة من فنادقها.

وأما عرباتها التي تخصُّ الوطنيين فيها فهي نوع من العربات ذات العجلتين أو الأربعة عجلات يجرها حصان صغير يشبه السيسي، وأما السيارات فإنها وقْف على الأجانب والأثرياء في تلك المدينة.

وأكبر شوارعها وأجلها شأنًا وأكثرها عمرانًا ذلك الشارع الذي يدعى شارع Residence ففيه الفنادق الكبرى وبضعة من النوادي.

ويبلغ تعدادها مائة ألف نسمة بينهم ما يُقدَّر بأربعة آلاف من الأوروبيين؛ فهي في هذه الوجهة أقل تعدادًا من «سولو» كما أنها أكثر في ناحية الأجانب.

على أنها تشبه «سولو» في نظام الحكم؛ فهي ثانية الولايات التي يُطلقون عليها اسم «سلطنة» يحكمها «سلطان» يحفظ جهده بتقاليد قومه الأقدمين.

ويرعى ما «لرتبته» من عهود، وولاية العهد في هذه «السلطنة» تتآلف مع النظم القديمة التي كانت لولاية العهد في الشرق، فأخ السلطان هو «ولي عهده» وإن لم يكن من أخ فأكبر رجال العائلة سنًّا هو ولي العهد العتيد.

وقد جعل موقع المدينة الجغرافي لها ميزة خاصة؛ فإنها في قلب الجزيرة، وعلى هذا يعدها السائحون نقطة ممتازة ومكانًا يجب أن يُزار.

وقد بُنِيت «جوكجه» على أنقاض بلد قديم كان مسرحًا للاضطرابات والفوضى وميدانًا رحيبًا للقلاقل والتقاتل.

وأجدر ما يُذكر فيها «سراي السلطان» يحيطها سور تُقدَّر مساحته بميل مربع، وأمامها ميدان رحيب حَفَل بالشجر الشامخ الضخم تقوم على جوانبه أشجار نُسِّقت على وضع «المِظلَّة» لما لها من مكانة التقدير عند الجاويين جميعًا.

وإلى جانب هذه البهجة التي تتراءى جلية في مشاهد الميدان والسراي، يجدر بي أن أقول بأن أحقر ما في المدينة هو «دورات المياه» التي تعود بنا إلى حقبة «حُجرة الزير» في منازلنا البالية العتيقة!

وفي موعد العشاء التقيت مع اثنين من السائحين كانا معنا في الباخرة في قدومنا من «أستراليا» إلى «سورابايا».

ولقد طلبت من إدارة الفندق أن تضع على سريري «ملاءة» حتى أتمكَّن من الغطاء، وحتى لا تتكرر مأساة السُّهاد الذي أصابني في الليلة الماضية، وهنا يحسن بي أن أوضِّح حالة الفراش كما شهدتها في حجرة النوم

«فالناموسية» في جاوة لها وضع خاص، تُفتَح من ناحية واحدة كباب تَلِجُ من إلى السرير، فإذا كانت مفتوحة فإن لها في أعمدة السرير — من الناحيتين أيضًا — «شناكل» كهذه التي تمسك عندما تكون مفتوحة بجوار النوافذ.

وأدهش ما رأيته في السرير أنه توجد عند «المخدة» مِقشَّة كبيرة جامدة تُشبه المِقشَّات التي نستعملها في بلادنا لغسيل الحجرات، بينما توجد إلى جوارها «مخدة» طويلة صلبة كأنها قطعة من الخشب.

لقد دُهِشت جدًّا لرؤيتهما وقد تمدَّدا في وسط السرير، وأخذني العجب لهذا المنظر الذي لم يختلف إليَّ رؤية مثله، فألفيت أنه من المحتم عليَّ أن أسأل مدير الفندق وأن أستوضحه ذلك السر الهائل فكان جوابه:

إن المِقشَّة قد وضعت هكذا حتى يتسلَّح بها النائم ضد حشرات الأرض، من عنكبوت كبير وسحالي وخفافيش وثعابين!

وأما «المخدة» الحجرية الطويلة فإنها تدعى «الفتاة الهولندية» وأنها وجدت هكذا لينام عليها الإنسان أو يتكئ حتى تتمكن له بواعث الراحة!

لقد أفزعتني مهمة «المقشة» فإن النوافذ بغير زجاج و«الشيش» فيها لا ينتهي إلا إلى النصف على نقيضه في نوافذنا ولقد جعلوه هكذا في جاوة حتى يجلب نصف النافذة المفتوح شيئًا من الهواء إلى الحجرة، إلى هذا أن الأماكن أرضية ليست لها فراندة على سطح الأرض، وفي هذا ما يجعل السبيل سهلًا أمام هوام الليل وحشراته البغيضة التي يغمرها السم الزُّعاف.

ولقد أضحكتني قصة «المخدة» وكان شأني أن احتويتها أول الأمر، على أني تحقَّقت من فوائدها بعد بضعة أيام، وآمنت أن الذي قيل لي عن مهمتها واضحًا صحيحًا.

إن مشاهد الصباح في جاوة تُمتِّع النفس وتُبهج الحِس، وإن مرائيها في الساعة الباكرة جميلة وفاتنة؛ فهذه أشجارها وزهورها تفتح عن أفنانها جمال الطبيعة الشائق فتملأ الجَنان غبطة، وهذه عصافيرها تسمع الأذن تغريدها الفائق الإمتاع السليم النفحات تلك صور تُحرِّك الفؤاد وتُذهب عن جوانبه كل أسًى.

لقد عُنِي الجاويون كما عُنِي المسلمون في كل فجٍّ بطير اليمامة؛ فقلما ترى منزلًا في الجزيرة يخلو من زوج أو اثنين يحيطهما أهل المنزل برعاية موفورة، ويدعون لها شيئًا من إكرامهم بأن يضعوها في قفص مخصوص، وترى أهل الريف يبالغون في إكرامها إلى الحد الأقصى حين يرتفعون بها إلى سماء المنزل مربوطة بحبل شُدَّ على عامود حتى تخال أنها بين مدارج الجو حرة طليقة.

كُنَّا من «سورابايا» إلى «سولو» لا نشهد من المزروعات غير «القصب» وغير هذه الفابريكات التي مدت السكك الحديدية إلى مزارعها حتى تكون عملية الشحن يسيرة سهلة، أما في «جوكجه» فإن ضواحيها مغمورة بزراعة الأرز الذي يستولي عليه الأجانب، ولقد رأينا في كل «تفتيش» جملة من «الأجران» المُسقَّفة المبنية من خشب «البامبوز» الذي تكثر أشجاره في هذه الجزيرة وليست «أجران» الأرز وحدها هي التي تُبنى من هذه الأخشاب فإن جدران المنازل وأسوار الحدائق ومجرات العربات والنقالات كل هذه المنافع تُبنى من شجر البامبوز.

لقد رأينا أن حركة الزراعة هناك تدل على نمو واضطراد نجاح كما أن الأهالي يعمرون الأصقاع في كثرة واضحة.

ويلوح لي أن أجور العمال ضئيلة تافهة، فكثيرًا ما ترى ألوفًا منهم يملئون المزارع وذلك يدل على كثرة الأيدي وتفاهة الأجور، على أن المثل القريب الذي أريد أن أظهرك به على حقارة الأجور هناك هو أن الصبي الذي تبلغ سنه ما دون الثانية عشر بقليل لا يأخذ أجر يومه غير مليم واحد، بينما هو يؤدي عمل الرجل تقريبًا!

وأجمل مشهد وقع عليه نظري بين هذه الأراضي المنبسطة التي غمرتها النباتات هو مشهد المنازل الجميلة التي ابتناها السكان بين الأشجار الظليلة، فإنك تخالها أول الأمر بقايا جذور قُطعت سيقانها واندثرت أغصانها، فإذا أمعنت فيها النظر عجبت لهذه الفكرة الجميلة التي نظم بها القوم هذه الأماكن حتى اتَّخذوها مأوًى أمينًا، وبيوتًا هادئة حصينة.

بينما هذه الأشجار التي تظللهم تضم إليها جمعًا من أشجار الفواكه كشجر «الموز» و«عين الجمل» و«البُن» إلى ذلك ما بينها من أشجار الفواكه التي تخص البلاد الحارة المانجا وما إليها.

أما المساكن في هذه المدينة فقد بُنِيت من «بامبوزه» وسُقِفت من قش الأرز، على أنها في صورة من الإتقان الجميل.

لقد قيل لي إن الأهالي هنا قوم بسطاء في كل شيء، في معيشتهم وفي السُّبل التي يتوفرون عليها طوال حياتهم، وإن الحياة العلمية بين طبقاتهم معدومة لا ظل لها، فقليل

منهم من يتعرف قواعد الحساب؛ وعلى ذلك فقد ألجأتهم الحاجة إلى أن يفتقوا الحيلة التي أضرب مثلًا منها:

عندما يولد بينهم مولود جديد يزرع أهله في الحال شجرة من شجرات «جوز الهند»، فإذا سألتهم بعدئذٍ عن عمر فتاهم ذهب بك أحدهم إلى الشجرة التي غرسوها يوم مولده، وعد حلقاتها المرسومة على جذعها، ثم يجيبك أنه قد بلغ كذا من السنوات؛ ذلك أنهم عرفوا أن هذه الشجرة لا تستدير حلقتها إلا كل حول، فلجئوا إليها يستنطقونها ذلك الحساب الدقيق.

٧ أغسطس

من الحتم أن يُدهَش الناس لأني لم أؤد الزيارة لواحد من السلاطين، أما أنا فأُعيد دهشتهم إلى فكرة المستعمرين في ذلك الشأن حتى لا يذهبوا بعيدًا إلى موطن الغرابة والتأويل.

إن المستعمرين يحرصون جهدهم على ألا يختلف أمير شرقي مسلم إلى واحد من الأمراء أو الشيوخ في بلد بسطوا سلطانهم عليه، وتغلغلوا بجبروتهم في نواحيه.

وأذكر في كثير من الأسف أني عندما أردت الذهاب إلى تونس والجزائر ومراكش على أمل زيارتهم وفقًا لبرنامج سياحتي حول العالم، تلمَّست صورًا من الصعوبات الهائلة التي تعترض الزائر الشرقي في طريقه إلى تلك الممالك، وأُصرِّح هنا بأن هذه العقوبات لم يذللها ويدفعها عن سبيلي إلا تأكيدي الحاسم للحكومة الفرنسية بأن سياحتي ليس لي من ورائها مطمع مستور ولا نية خافية، وإنني في سبيل أن أُزيل من شكوكهم نحونا سوف لا أزور واحدًا من كبراء هذه البلاد.

وهكذا كان الشأن في رحلتي إلى جاوة فإننا حينما أظهرنا رغبتنا في زيارتها لكثير من كبراء الهولنديين كانت بسماتهم تنمُّ عن السرور والغبطة الجمَّة والترحيب الكبير، ولكننا تبيَّنا الحقيقة التي أُسدِل عليها الحجاب، فإذا بهم لا يحبون أن نخالط أحدًا من المسلمين في هذا البلد ولا أن نتقرَّب إلى رجل رسمي من مسلميها.

وإلى هذه الأسباب وحدها قد رأيت ألا أختلف إلى رجل رسمي في البلاد.

تحقق لديَّ أن الجاويين في وجهة الزواج يُلابسون النُّظم الشرقية في أمره؛ فالأطفال يتزوجون من صغار البنات، وكبار الشيوخ يتزوجون ممن لم تبلغ الحُلُم، وكثيرات منهن لم تخط إلى سنتها الثانية عشر.

وأحمد الله تعالى على أن الثورة التي قامت في جاوة قبل عام من رحلتنا فيها قد دفعت إلى قلوب الهولنديين فكرة الشِّدة فراحوا يُعدِّلون في قانون البلد العام، وفتحوا في لوائحه أبواب البنود الجديدة التي جعلوا منها تحريم الزواج على الفتاة التي لم تبلغ سنها السادسة عشر ربيعًا.

إن الجاويين قصار القامة، وقد يكون من بواعث ذلك أن أمهاتهم يتزوجن صغيرات السن وأنهن يلدن قبل أن تكمل لهن سن البلوغ فيُنتَج النسل سقيمًا هزيلًا.

ولقد أفادت الحكومة الهولندية الصحة العامة في هذه الجزيرة حين قرَّرت أن تمنع كل تاجر للمأكولات من مزاولة مهنته إلا أن يضع سلعته تحت زجاج أو «شاش» أو شبكة من السلك الرفيع، كما حرَّمت على أي إنسان أن يضع القمامة وما إليها من القاذورات في الشوارع والطرقات.

وإنه لعمل جميل أظهرني على أن البلاد برغم حرها الشديد بعيدة نائية عن جيوش الذباب.

في الساعة الثامنة والنصف صباحًا أخذنا سيارة لتُقلَّنا إلى معبد قديم يدعى «بربادور» وقد بُني ذلك المعبد عام ١٧٥٠م وأُقيم على نسق معابد الهند.

مررنا في طريقنا على قسم من أقسام المدينة ثم انتهينا إلى الخلاء في طريق من أفخم الطرق وأجملها منظرًا، مرصوف بالأسفلت، مُتَّسقة على جوانبه تلك الأشجار العالية التي اشتُهرت بها هذه الجزيرة.

وقد ألبسه اتِّساعه الرحيب الذي يبلغ خمسة وعشرين مترًا ثوبًا من الجمال والبهجة ما يكاد الطرف يقع على روائهما حتى يخال أنه يشهد أفخم السُّبل في ضواحي باريس أو لندره من وجهة التنسيق المُنظَّم والنظافة الفائقة، بينما هو في اتِّساعه أضفى من طرائق هاتين العاصمتين وأجمل.

ويعود ذلك النظام، وتعود هذه الأناقة إلى ضآلة أجور العمال وإلى كثرتهم، فهم منتشرون في كل مكان يعملون في تحسين الطرق وفي تجميلها، حتى يحسب السائر فيها أنه بين حديقة غنَّاء ذات أفنان.

ولما كانت المدينة وافرة التعداد فالطريق مزدحم بالأهالي، والفلاحون يجلبون نِتاجهم للبيع، ويحملون متاعهم الثقيل على عربات تجرها الثيران، فإن كان المتاع خفيفًا كأن يكون من الفواكه أو الخُضر أو الدجاج أو الأوز فإنك ترى الرجل يحمله على عصاة غليظة شد هذا المتاع إلى طرفيها وأسلمها إلى كتفه.

وانتهينا في طريقنا إلى بعض «الكفور» فإذا بنا نرى أن السوق تعمره السيدات وتُغالب فيه الرجال تعدادًا، وإذا بنا نرى أن كثيرًا من الحوانيت يُديرها النساء، فأيقنَّا أن السيدات هنا لا بدَّ وأن يكن على غاية من الذكاء والدراية في مزاولة التجارة، وهن في هذا المكان كأخواتهن في أرجاء الجزيرة قصار القامة ضعيفات، أما الفلاحون فإنهم بالنسبة للسيدات أكثر قوة على الرغم من أنك تظن أنهم سيهبطون إلى الأرض من شدة الضعف والوهن!

كما أنك ترى من بينهم من يتزوج وعمره عشر سنين أو اثني عشر.

وعلى أي حال فإن الذي علمته أن واحدًا من الأهلين لن يجاوز الستين عامًا وهو على قيد الحياة!

إن الأشجار والنبات والعصافير والحشرات في هذه البقعة لعلى غاية من السعادة والجمال والرونق النضير البهي.

وإن الإنسان هنا لبالغ منتهى الضعف والفاقة والمَسكَنة، أما الخيول والماعز والثيران فإنها قرينة الإنسان في ضعفه وهزاله، بينما الكلاب الجاوية ضئيلة الحجم صغيرة جدًّا!

وصلنا إلى بربادور وإذا بنا حِيال الآثار التي تركها البوذيون في جاوة، وهو معبد كروي السارية، أحجاره من النوع البركاني يحسبه الرائي عن بُعد أهرامًا، رفيع العماد وقد زُيِّن بنقوش وتماثيل صُوِّرت فيها الطيور والعصافير والحيوانات والأفيال على نسق من مثيلاتها في المعابد الهندية، إلى ذلك ما أقيم على قمته من تمثال لبوذا الذي يربو عرضه على مائتي متر.

ثم صعدنا على قمة الهيكل رغبةً منا في إمتاع الطرف بمرائي الطبيعة من حوله فإذا هي مشاهد جميلة رائعة، ثم تركناه إلى السيارة وأخذناها إلى قرية صغيرة تدعى «مندويت».

ففي «مندويت» شهدنا هيكل «بوذا» من حجر واحد يرتفع إلى أمتار ثلاثة يقف عن يمينه «براهما» وعن يساره «سيوا» وهذه الهياكل الثلاثة لا تلاصق بعضها، بل كل منها قد استقل عن أخويه، على أنهم في وضعها قد جاءوا على أجزل دقة وأجمل إتقان.

ولقد ألفيناهم هنا يستعملون «البخور» ويغلب عندهم بخور الصندل القوي النقي لوجوده بكثرة هائلة في تلك البلاد.

أعطينا «البقشيش» للخفير العجوز، ولقد شئنا أن نسأله عن دينه، فما أشد دهشتنا حين علمنا أن خفير المعبد الوثني رجل مسلم!

ويجدر بي أن أذكر — على ذكر «البقشيش» — أن القوم هنا على شيء كثير من الأدب الجميل، فهم يتقبلون ما تمدهم به دون أن يهجموا عليك ويُضايقوك كما هو الشأن في كثير من البلاد.

ومهما يكن العطاء قليلًا، فإن أحدًا منهم لن يتبرم به، بل يمسكه بيد ويضع الأخرى على قلبه، ثم يركع على ركبتيه ويلقي بعطائك على رأسه، وإنه ليُقبِّله قبل أن يضعه في جيبه، كما تعوَّد الشرق في عهده القديم.

ورجعنا إلى الفندق حيث كانت الساعة العاشرة والنصف.

بعد الظهر …

أخذنا السيارة ورفقتنا واحد من موظفي الفندق ركب معنا لنجول في المدينة، فمررنا أول الأمر على ذلك الحي الذي يقطنه الإفرنج، وإذا بمنازله أقل شأنًا من منازل الفرنجة في «سورابايا»، وإذا بنا نرى عددًا من المدارس والمستشفيات، إلى ذلك ما وجدنا من ثكنات صغيرة يعمرها الجنود الهولنديون، كما رأينا في تجوالنا بهذه الناحية ديرًا للقُسُس.

واجتزنا هذه المشاهد إلى أن مررنا على سراي السلطان التي يُحيطها سور مرتفع أبيض اللون، وترقَّبنا أن نشهد واحدًا من الجند الذين يحرسون السراي، ولكنا لم نشهد منهم أحدًا، وهذه السراي لما تجمع من ملحقات قد أخذت من المدينة حيزًا كبيرًا من مساحتها.

وأَدهَشُ ما قيل لنا إن السلطان قد بنى من ثلاثين زوجة، وأنه شاء هذا العدد الوفير حتى يمر الشهر عليه وقد خلى كل يوم إلى زوجة لا يشهدها إلا في دورها من الشهر القادم وهكذا دواليك!

أما القسم الأهلي في هذه المدينة فإنه خلو مما يلفت النظر.

لا يعرفون هنا «المسلي» ولذلك ترى أن أغذيتهم تُطهى بزيت الهند.

وأجور السيارات أضعاف أجورها في «سورابايا»، ففي هذه المدينة ترى سيارات من نوع taxi قدرت لها الحكومة تعريفة خاصة، أما هنا فكنا نجلب السيارة بواسطة «بوَّاب الفندق» وعلى هذا فقد تعيَّن علينا أن ندفع الأجر أضعافًا مضاعفة.

وقد ذهبنا إلى فوتوغرافي واشترينا منه بعض المناظر.

إن الإعلانات التي يجتذبون بها السائحين إلى هذه الناحية قد ضمَّت إليها أشياء كثيرة، كلها إطناب ومبالغة.

والحقيقة المنصفة المجردة عن الهوى أن شيئًا مما وقع نظري عليه لا يستحق أن يُذكر.

اللهم إلا جمال أفرغته القدرة على مشاهد الطبيعة، وإلا نمو الأشجار الذي يدع في النفس أثرًا رائعًا جليلًا.

٨ أغسطس

قيل لنا إن المدينة ككثير من المدن الجاوية بها أمكنة خاصة للرهونات تشرف عليها الحكومة وتقع تحت إدارتها.

وقيل لنا إنه كثيرًا ما تجمع هذه الأمكنة أنواعًا من «الأنتيكات» القديمة فتُبتاع بأثمان زهيدة بخسة.

ولقد أردنا أن نتعرف إلى هذه الأمكنة ونجوس خلالها، ففي الساعة الثامنة والنصف صباحًا غادرنا الفندق على عربة يجرها جواد من نوع «السيسي» ووجهتنا محلات الرهون، وبعد كثير من التنقيب ذهب بحثنا عن «الأنتيكات» القديمة سدًى، فولَّينا وجهتنا إلى السوق.

و«السوق» في هذه المدينة مُسقَّف نظيف وأكثر سلعه في يد النساء، أما هذه السلع فأغلبها «فوط» من «الشيت» صُبِغت بنقوش ملونة من يد الأهالي الذين يدعونها Batik وهي ذات ثمن باهظ عن مثيلاتها في الحوانيت، ولقد تقدمت إلينا إحدى العجائز بواحدة منها، ولما استوضحتها الثمن كان ما قدَّرته لها مجحفًا وغاليًا، ولكني ألفيتها فقيرة مُعدِمة، فأفسحت لها من صدري الذي رقَّ لحالها ونقدتها الثمن دون أن أساومها في إعادته إلى قدره المعقول.

ثم أتينا على جولة يسيرة في سوق العصافير والدجاج، وسوق الزهور والفواكه والتوابل وعدنا إلى الفندق.

طلبت إلى رئيس الفندق أن يستقدم إلينا في الساعة السابعة مساء الراقصات والممثلين ومعهم «الطبل البلدي» الذي اختصوا بالتوقيع عليه، فقد سمعنا من كثيرين أن هذه المدينة تجمع فيها أحسن أنواع الطرب الخاصة بتلك البلاد، فأجابني رئيس الفندق بأنهم سيحضرون في الموعد الذي قررناه وأن جمعهم سيلتئم في صالة الفندق.

لقد تحدثت قبل اليوم أن حركة الناس تتعطل هنا في ساعات الظهيرة، وأن محلات التجارة تغلق من الظهر حتى الرابعة والنصف مساء، فكل الناس يريدون الفرار من وهج الشمس، وكلهم يريدون الراحة في هذه القيلولة المحرقة.

في الساعة الرابعة والنصف ذهبت إلى الفوتوغرافي لأخذ صور لمناظر المدينة.

وفي الساعة الخامسة توجَّهنا للنزهة وعدنا في السادسة مساءً فكانت آلات الموسيقى قد حضرت إلى الفندق.

وهذه الآلات تتكون من أوانٍ من النحاس ما بين صغيرة وكبيرة قد ارتبطت إلى بعضها بقطع من الخشب ووضعت على فوهتها قطعة من الحديد، فحين يبدءون التوقيع تراهم يضربون بقطعة من الخشب على تلك الحديدة فينبعث منها صوت يشبه رنين الأجراس.

وجلسنا في الساعة السابعة بين رهط من السائحين في صالة الفندق.

وبدأت الموسيقى ...

ثم جاء دور الراقصات ...

فإذا بنا أمام امرأتين ذوات أقدام عارية وقد صبغتا وجهيهما بالطلاء، فبدت حواجبهما على صورة لم يألفها النظر، وبدأتا الرقص والغناء، فإذا بنا نشهد حركات فاترة لا حس فيها ولا روح، تحريك للذراعين وجمود في أعضاء الجسم جميعها وتصلب في الأرجل، وغناء كأنه عويل ونحيب.

وأعقب التمثيل الرقص.

فإذا كل «مكياجهم» أن الرجل يحيط وجهه بذقن كبيرة ويجعل لرأسه قرونًا، وأن المرأة تتحدث في صوت خافت ضعيف، بينما يحدثها الرجل بلهجة تدل على الكبرياء والعنف، أما أدوارهم فكانت خليطًا من هذه الأسماء الطنانة والصور المرعبة: الشاب المجاهد، الحاكم، الشيطان، القاضي، وزير الملك، وما إلى ذلك من مسميات.

ثم لعبوا لعبة صغيرة.

ولكني في الحق لم أحفل بتهريجهم ولم أنشرح له لأنه كان عقيمًا تافهًا، لم تدفعني إلى رؤيته غير ظاهرته الوطنية التي حتمت عليَّ أن أشاهده.

أما الموسيقى فإنك تُسر لها أول ما تُعزف، ولكنها إذا استرسلت فقد حفل صدرك بالسأم وملأت نفسك بالضيق.

وهكذا لم تأخذ هذه المساخر في الفندق غير ساعة أعلنا بعدها شكرنا لهم فانصرفوا.

٩ أغسطس

استيقظت في الساعة الرابعة والنصف حتى أعد العُدة للسفر على قطار الإكسبريس الذي حجزنا به أمكنتنا والذي يغادر «جوكجه» في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة قاصدًا إلى «بتافيا» عاصمة الجزيرة.

ولما كان الوقت مبكرًا جدًّا فقد كان الهواء باردًا جدًّا.

وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين بدأ القطار يعلو على مستوى السهل المنبسط في سبيله إلى جبل مرتفع، فالمدينة التي نقصدها أكثر ارتفاعًا بين مثيلاتها من البلاد التي تقع تحت سيطرة الأوروبيين، وقد اتَّخذوها في مثل ذلك العلو الشاهق عن سطح البحر حتى تكون منتجعهم في أيام القيظ والهجير؛ ذلك أن الإنسان كلما ارتفع على قمة الجبل كلما أحس في أشد الأيام حرارة بأنه محوط بجو بديع ونسيم عليل.

وظل القطار يعلو فبدت المناظر — مناظر السهل — نشهدها من ذلك المرتفع جذَّابة ممتعة حتى وصلنا إلى محطة «تيبوتاجو» وهناك تركنا القطار لنأخذ قطارًا آخر صغيرًا جبليًّا حتى نصل به إلى «جاريت».

جاريت

وقد رأينا عددًا وفيرًا من الضباط الهولنديين يريدون أن يركبوا القطار، ولما كان ازدحامه شديدًا وأماكنه لا تسعهم فقد أُحضِرت لهم عربة خاصة ركبوها مع الجنرال، ولقد علمت منهم أنهم يقصدون معنا إلى «جاريت» لأنهم يُقيمون فيها مناورات عسكرية في ذلك الصيف.

وهنا يجب أن أذكر أن وطأة الحكومة هنا شديدة، وأن سياستها في الوجهة الوطنية متأخرة مؤلمة، فإذا ما بدأت حركة في البلاد فإنها تُقمَع بكل شدة، ولقد كان هذا مصير الحركة التي قامت في جاوة في العام المنقضي، ولأن هذه الجهات التي تقام فيها المناورات العسكرية ذلك الصيف كانت أكثر اضطرابًا حين الثورة وأشد فوضى فقد عمد الهولنديون إلى أن يُظهروها على ألوان قوَّتهم وصور سلطانهم ولهذا أقاموا بها المناورات، وبعد ثلاثين دقيقة كنا في «جاريت» فأخذنا سيارة من المحطة وذهبنا إلى الفندق.

و«جاريت» وإن تكن بلدة صغيرة يبلغ تعدادها تسعًا وعشرين ألف نسمة بينهم أربعمائة وسبعة عشر من الإفرنج فإنها جميلة تنعش النفس إذ تعلو سطح البحر بـ «٢٥٠٠» متر، وعلى هذا فمناخها لطيف رقيق لا حرارة فيه، إلى ذلك ما بها من مشاهد الطبيعة اللائقة ومناظرها الحسان.

وهي بعيدة عن الضجيج والحركة والزحام، تلمسنا فيها كثيرًا من الراحة والهدوء.

تناولنا الطعام وأخذنا من الراحة قِسطًا قليلًا، ثم ولَّينا وجهنا شَطْر بلد قريب.

وفي طريقنا إليه شهدنا هذه المرائي الجميلة في طُرق الجزيرة المرصوفة المحوطة بالشجر الكبير ورجعنا إلى الفندق.

وكان أول ما أخذنا نفسنا به عند عودتنا من النزهة أن جلسنا تحت شجرة نستنشق الهواء المنعش، وكانت بهجة المناظر ورقة الهواء تُشعرني أني في سويسرا.

على أني برمت بهذه الخاطرة التي ألجأتني إلى أن أسير على قدمي قليلًا؛ فقد أتعبني ذلك السير، وهكذا أؤمن بأن كل كائن في الدنيا وكل شيء فيها له أوانه وأيامه ووقته الذي لا يعدوه، فأنا الآن لا أستطيع أن أمشي وأعمل كما كان شأني من زمن.

ولقد تحقَّق لديَّ أنه ليست هناك فائدة تعود على رحلتي في انتظاري أيامًا ثلاثة ويومًا في «باندنج» كما نظمتُ في برنامجي الذي كنت قد سجلت فيه بأني مسافر إلى «بنتازور» في اليوم الحادي عشر.

تحقق لديَّ كل هذا فعدلت عن البرنامج واقتصرت مدة الإقامة فأزمعتُ على السفر.

١٠ أغسطس

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة صباحًا قصدنا بالسيارة بلدة تدعى «تشيباناس» حتى نشهد بها عيون المياه الساخنة، ففي طريقنا إليها مررنا على عدة بحيرات صغيرة تُستعمَل لتربية الأسماك، وقد علمت أن نتائجها في كل عام يأتي بإيراد غير قليل، كما أن تربية «البط» تجلب بدورها إيرادًا يُعين المنتجين على أن يعيشوا عيشة منظمة.

وأغرب ما شهدته أن البط هنا أكبر وأعلى من مثيله في مصر، وأن لونه ترابي، وأنه هنا كالغنم ينتشر صفوفًا متراصة كصفوف الجنود بين الحقول والمزارع، فإذا شاء أصحابه أن يُعيدوه إلى منازلهم رأيت صبيًّا صغيرًا يهشه أمامه كأنه فصيلة من الأنعام!

وقد تحدَّثوا عن فصيلة البط بأنها تُنتِج «بيضًا» كثيرًا وأنه أكثر ثمنًا من بيض الدجاج، وأعجب ما فيها أنها ذات رقبة رفيعة حتى تخالها أول ما تشهدها أنها من فصيلة «الأوز»!

سرتنا مزارع الأرز ذات اللون الأخضر الفاتح الجميل الذي يبدو أجمل صفاء من منظر السماء في البلاد الحارة.

وأدهشنا أن الجاويين يُحوِّلون الجبال من قممها حتى السفح إلى مزارع للأرز، وأنهم يقيمون حقولهم على شاكلة «المُدرَّج» يتصل الماء من حقل إلى آخر دون أن تظهر أعراض الظمأ على واحد منها.

وهذا يناقض الحال الزراعي لدينا، فإنه متى كان لإنسان في مصر مزرعة خاصة من عشر إلى عشرين فدانًا ترتفع عما يجاورها من الأراضي ارتفاعًا محسوسًا فإنك ترى لندرة المصاريف وقلة العناية أن هذه العشرة أفدنة قد جعلت ما يجاورها أرضًا بورًا لا تصلح لغرس ولا تنتج حصادًا.

وقصدنا عيون الماء فإذا بها جمة النظافة تشرح الصدر وتبهج النفس على نقيض هذه العيون التي تتفجر في مصر لتحتويها الأوحال والقاذورات بصورة بشعة محزنة.

وقد ساعدنا صفاء الجو ونقاؤه ولطفه وعليل نسيمه على أن نغادر العيون إلى بحيرة «ليلس» فإذا بمنظرها من المرتفعات يُفعم الخيال جمالًا، وإذا بها جديرة بأن تجذب إلى وجهتها قلوب السائحين.

ثم غادرنا بحيرة «ليلس» إلى بحيرة «بجانديت» وإنها وإن تكن أكثر اتِّساعًا من «ليلس» فليس ثمة من منظر جميل أو مشهد يستحق أن يُذكر، ومن هذه البحيرة عدنا أدراجنا إلى المدينة.

لقد أدهشتنا كثرة الأهالي، لا على هذا الطريق وحده، ولا في هذه المدينة دون سواها، بل في أرجاء جاوة جميعها، فالطريق التي اجتزناها من البحيرة إلى المدينة كانت مُكتظَّة كخلية النحل مليئة بالفلاحين غادين رائحين.

وأغرب ما وقع نظري عليه في هذه الناحية أن الرجال والنساء والأطفال كل منهم يحمل شيئًا في يده يريد أن يبيعه في السوق.

وليس هذا هو المدهش ولا هو بيت القصيد، إنما المدهش حقًّا أنه إذا كان لرب عائلة دجاجة أو اثنتان وأراد أن يبيعها شهدت عائلته من زوجته وأطفاله وقد نفروا جميعهم إلى السوق خفافًا سراعًا ليبيعوا سلعتهم!

ولوافر ما أصابهم من فقر وما لحقهم من فاقة ترى أنهم يحملون أثقالهم على أكتافهم عشرة من الكيلومترات أو عشرين، وقد برزوا من بالغ الحرارة في أجسام عارية يتصبب العرق منها وكأنه ماء يتدفق من أفواه القِرب، بينما هذه الأثقال قد لا تساوي غير قرشين، وهذا يدل على غاية النشاط والكدح العظيم.

في الساعة الرابعة والنصف قدمنا أربعة من الصبية وفي أيديهم آلات موسيقية صُنعت من خشب البامبوز — وقد سمعت عن هذه الآلة من قبل — جاء أولئك الصبية الأربعة ومعهم صبي آخر أحضروه ليرقص فكانت هذه الجوقة التي تتراوح أعمار أفرادها بين التاسعة والعاشرة ظريفة خفيفة مُبهجة، ولقد ظلوا يرقصون على نغمات موسيقاهم التي كانت تنبعث جميلة شائقة، وكم عجبتُ لهذه الآلة، كيف يتسنَّى لها أن تُرسل ذلك الصوت الشجي، وألفيت هذه الموسيقى أُفتن بكثير من تلك الموسيقى النحاسية التي سمعتها في «جوكجه».

وكان بين الأدوار التي عزفها الأطفال دور يشبه المارش العسكري.

ومكثوا يعزفون وبينهم الطفل الصغير الخامس يزيد المنظر بهجة بتقليده الإفرنج حتى لقد طربت كثيرًا.

ثم أعطيتهم البقشيش، وفي مناسبته أقول بأنه قيل لي إن أولئك الأطفال سيكونون جد فرحين إذا أنا نفحت كل واحد منهم قرشًا، ولكني حوَّرت النظرية فأعطيتُ كل واحد منهم ريالًا فما أمتع منظرهم الذي يدل على الأدب الكثير والخضوع الوافر، وهم يستقبلون الأرض ركوعًا على أقدامهم شكرانًا وحمدًا!

ولقد حببتُ إلي هذه الآلات أن أشتري واحدة منها حتى أريها لصاحبة السمو الوالدة حين عودتي، وهكذا فعلت.

ثم أوصيتُ بعدئذٍ على سيارة للنزهة، ولا بدَّ لي من أن أعاود القول بأنه لا توجد بلاد يدفعك جميل مناظرها ورائع أناقتها وجسيم نظافتها وجمال مسالكها وطرقها إلى أن تجوبها وتتنزَّه فيها بسيارة مكشوفة، لا توجد بلد تدفعك إلى ذلك إلا أن تكون هي «جاوة»، فالتنزُّه فيها بعد الظهيرة عمل مقدس، ولقد رغبنا إلى سائق السيارة أن يقودها في بطء ما دامت المشاهد كلها على نسق واحد، وما دام رجاؤنا في هذه الجولة أن نُمتِّع الطرف بالمناظر البهيجة، ولكنه طمعًا في الربح، وجريًا وراء الكسب، وتمشيًّا على منهج الطيش لم يضع نُصب عينيه السير على البرنامج الصغير الذي وضعناه لهذه النزهة بل تمادى في عدوه وأطلق في سيارته العنان ونحن بين مناظر خلَّابة كأننا نودُّ أن نقطع الليل إلى صفحة النهار، فمررنا بفصائل الجاموس ذات اللون الأبيض يسوقها الأطفال أو يمتطون ظهورها كما هو الشأن في مصر.

وأخذ الظلام ينشر سدوله وأرديته، وأخذ الجو الرطيب يلقي زمهريره على الوجوه، وتبيَّنا طريقنا فإذا به بعيدًا عن «جاريت»، فسألت السائق في كثير من الكَدر، كيف ساغ له هذا الضلال؟ وكيف استحلَّ لنفسه أن يبعدنا عن المدينة فحسب أننا كنا نريد اتجاهًا غيرها؟ وعلى ذلك أردناه أن يعود وأن يسرع في عوده.

وحين مرورنا شهدنا لوحة الطرق التي تسجل أرقام الأميال، فألفينا أننا نبعد عن المدينة بتسعة عشر ميلًا، وهنا ظهرت على خيالنا العادة التي تعودناها من زمن بعيد وهي استحالة وجودنا في الخلاء بالليل، فحثثناه على العود القريب، وتنكر سرورنا من النزهة إلى قلق وألم، حتى إذا ما وصلنا إلى الفندق كان أول ما اتَّخذنا من عمل أن شكونا السائق

إلى صاحبه، وقد أراد هذا أن ينجو من ورطته فقال إننا لم نسر إلا تسعة أميال، بينما كانت اللوحة تسجل أننا سرنا تسعة عشر ميلًا؛ وعلى ذلك انتهى الأمر.

إن صاحبة الفندق عجوز تناهز الستين، لطيفة المعشر رقيقة الجانب، ولها بنت متزوجة هي في الحق مديرة الفندق الساهرة على شئونه وصوالحه، وكم كان جميلًا ما أثره في نفسنا من عنايتها بخدمتنا وتوفيرها لراحتنا راحة بذلت فيها من جهودها كثيرًا.

١١ أغسطس

حالة الصباح ككل يوم هواء منعش ومشاهد ممتعة.

ولقد أخذنا عدتنا حتى نتمكن من السفر وأخذنا بعض المناظر.

يُدهشني ما عليه الأهلون من ضعف وهزال فإن الصندوق لا يتمكن من حمله إلا أربعة أو خمسة من الناس.

وزاد في إعجابنا أنك ترى ثغرهم يفتر دائمًا عن الضحك، فإذا رأى أطفالهم أحد المارَّة بسموا له، وإذا نشدتَ عِراكًا أو مشاجرة تقع بينهم فإن دون شك تنشد شيئًا يجدر بك أن تضعه في حكم المستحيل فإنهم على كثير من الهدوء والوادعة.

تناولنا طعام الغداء وأخذنا قطار الساعة الثانية عشرة ثم غادرناه في «بتاتاوى» وهناك ركبنا الإكسبريس الذاهب إلى «بيتانزورغ» و«باتافيا».

باندنج

مررنا في طريقنا على «باندنج» وهي أكبر مدينة في وسط الجزيرة ذات أرض خصبة ومعامل عديدة، يقطنها كثير من الأوربيين وتعمرها عدة مدارس، وقد علمنا أن الهولنديين فيها يُزوِّجون الوطنيين ويتزوَّجون منهم، وأنهم لا يباعدون بين متعلميهم وبين مجتمعاتهم ونواديهم، وهذه حالة قلَّ أن يعمل بها مستعمر ينظر إلى الشرق بالعين التي تصوره له وكأنه صنيعة خاصة، وكأن أهله من طبقات عبيده.

وأدهش ما أُسجِّله بين الألم والغرابة ذلك الحادث الذي وقع لنا حين ركوبنا القطار.

فقد كان به ستة مقاعد للدرجة الأولى بينما يبلغ عدد الذين صرفت لهم تذاكر عن هذه الدرجة ثمانية، وأصبح من الملموس أن هناك اثنين لا مكان لهما؛ وعلى ذلك فقد قام

رجلان من الهولنديين واحتجًّا على الناظر وألفتناه نحن إلى مطلبنا وإلى أنه جدير به أن يُهيئ لنا نحن الثمانية أمكنتنا التي نستحقها بموجب التذاكر التي نحملها، ولكنه عِوضًا عن أن يلتفت إلينا أعطى القطار إشارة المسير على حين غِرَّة.

فعدونا حتى لحقناه، وبقيت الحقائب على الرصيف، فجاءنا بها رجل طيب النفس شهم.

وقع ذلك الحادث المدهش في بلد يُذيع آلاف الدعوات للسائحين أن يزوروه، وحدِّث على صورة أقل ما تُوصف به أنها إخلال بالنظام وإعنات للسائحين!

على أن الجهل بلغة القوم لها شأن في كل ما يُكدِّر الصفو ويُعكر الخاطر.

تمتَّعنا بجميل المناظر ورائعها وبديعها، وسار القطار بنا بين مزارع البن والشاي، ثم شهدنا غابات قد اكتظَّت بالشجر وحفلت به.

بيتانزورغ

وفي الساعة السابعة والربع وصلنا إلى «بيتانزورغ» ونزلنا في فندق «بل في».

أما «بيتانزورغ» فإنها تبعد عن «باتافيا» ثلاثة أرباع الساعة بالأوتومبيل، وتعلو عن سطح البحر بثلاثمائة متر، ويبلغ تعدادها خمسين ألف نسمة على وجه التقريب، بينهم خمسة آلاف من الأوربيين، وهي أصح مكان في الجزيرة لأنها مقر لحديقة النباتات التي تعد أكبر مثيلاتها في الدنيا والتي أنشأها العالم النباتي الإيرلندي «رين ود» عام ١٨١٧.

وقد جعلتْها هذه المزايا الجليلة منتجعًا للسائحين ومستقرًّا لدار الحاكم لجزائر المستعمرات الهولندية الشرقية منذ اختارها الجنرال «فان ام هوف» في عام ١٧٤٥ لتكون مقرًّا لكل حاكم.

وعلى هذا فإن أكثر زائريها إما طبقة الموظفين يلجئون إليها بحكم عملهم، وإما طبقة السائحين، أو ذوي الحاجات التي يرجع الفضل فيها إلى حاكم الجزيرة.

يقرب المدخل الرئيسي إلى المدينة من حي «الصينيين» قُبالة مصلحة الزراعة، وهو شبيه ببوابة كبيرة يأخذك فيها أول ما تشاهد منظر نفق ممتد طويل تتخلَّله أشعة الشمس، وقد التأم ذلك النفق واستقام من جذوع شجر «الكناريا» التي تشبه في طولها وامتدادها منظر العملاق السابح في الفضاء البعيد، وتتلاقى ساريَتاه على صورة «قوس» يبلغ ارتفاعه مائة قدم، وذلك هو طريق «كناري» الذي طبقت شهرته كل فجٍّ والذي يصل بك إلى البحيرة

الصغيرة الساجية التي تُطلُّ عليها واجهة سراي الحاكم العام، وأمتع ما في هذه البحيرة أنها مليئة بأنواع كثيرة من «عروس النيل» وذلك دون ريبة منظر جذَّاب بهيج.

إن قطع الأرض التي تلابس جوانب سراي الحاكم العام أرض محظورة، ولكنك تشهد في شأو طريق «الكناريا» قريبًا إلى الشمال ممرًّا صغيرًا هو الذي يصلك إلى المقبرة الصغيرة، كما أنك ترى ذلك المكان الذي ورف ظله وامتد في وسط البامبوز، ذلك المكان الذي كان يلجأ إليه الحاكم العام السابق de Erens طلبًا للراحة، والذي كان يلجأ إليه عديد من الرجال العظماء أيضًا، فإذا توليتَ شطر اليمين عند دخولك إلى الحدائق كنتَ حِيال بعض من الآثار التي بقيت من عهد الهنود على ذلك القبر الصغير الذي شيد كتذكار للادي رافلس زوجة الحاكم الإنجليزي عنها، فإذا ما سرت قليلًا كنت أمام Pandanus وعلى مقربة منها تتلاقى بالقسم الذي يخص النباتات المُتشعِّبة التي جمعت من جوانب المستعمرات الهولندية المختلفة.

إن سراي الحاكم العام التي تحيطها هذه الحدائق الغنَّاء والمناظر البهيجة الممتعة، إلى ما يتراءى لك من مُتنزَّه منسق هي عمارة جميلة بديعة الرواء يطل جانب منها على بحيرة عروس النيل الشهيرة، أما جانبها الغربي فقد أُقيم لصق حديقة فاتنة البهجة جذابة المنظر.

١٢ أغسطس

إن مناظر الصباح من «البلكونة» في ذلك الجو الهادئ الوديع المنعش لتمد النفس بعاطفة من السرور الفائق، ولعل القارئ لم ينسَ ذلك الحديث الذي قدمتُ به إليه عن الفنادق وعن نوافذ حجرها التي تبعث إلى داخلها أشتاتًا من الهوام، فقد تحدثت أن هذه النوافذ مفتوحة من نصفها ليمر الهواء منها، وأن الحشرات التي تسبح في الغرف لا يستطيع إنسان أن يُمسك بها، فالسحالي تسبح على الحائط، وعلى الرغم من أنها صغيرة الحجم فإن لها صوتًا مزعجًا تسمعه وكأنك تسمع إنسانًا يصفق بيديه

أما ضفادع الليل فإنها حين تسير تُحدِث قرقعة على الباب والحائط، بينما صوتها يشبه نهيق الحمير، وهذا لا يدع لرجل عصبي حالة من الراحة والسكون بل إنها أمور تقلقه وتبعثه على السأم.

ولكن أحاطتنا الخشية وملأنا الفزع مخافة أن يمر علينا في غرفتنا ثعبان، ولكنا قد ألفينا في إحدى ليالينا بالفندق «نِمسًا» يجري في الغرفة بملء قوته، فكان هذا مثارًا للخوف من هذه الحشرات ومثارًا للضحك من هذا المنظر الشاذ.

وهكذا قضينا ليلتنا وقد باعدتنا الراحة، ونأى عن جانبنا الهدوء.

في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة من صباح اليوم توجَّهنا إلى حديقة النباتات سيرًا على الأقدام، فهذه الحديقة لا تبعد عن الفندق إلا مائتي متر.

إن حديقة النباتات بأشجارها الكثيرة وأنواعها المتعددة لأفخم وأروع ما شهدنا من مثيلاتها.

ولن يتمكن لك أن تعد أشجارها ولا أن تُحصي أنواعها، على أنها من نباتات البلاد الحارة دون سواها.

إن هذه الحديقة الفاخرة التي ذاعت شهرتها في عالم النباتات، والتي أصبحت حديقة وطنية للجاويين، إنها في اتِّساعها وفي أهميتها تدفع السائح إلى أن يجوبها ويجوس خلالها وينتهي إلى أطرافها جميعها.

ولكنها لا تجمع إليها من العناية ما يهيئ شيئًا من الراحة التي تعوز الزائر في هذه المكان الرحيب.

فإذا كنا في الطريق إلى الحديقة فثمَّة طريق مستقيم مبثوثة على جوانبه أشجار الكناريا التي ترتفع إلى خمسين مترًا يحتضن كل شجرة منها ذلك النوع المعروف بـ «المداد» يحف بساق الشجرة الكبيرة بينما يُبهرك في آخر هذا الطريق إلى منظر البحيرة الصغيرة التي تقوم سراي «الحاكم العام» من خلفها.

فإذا كنا في أول الحديقة فقد تراءت أمامنا عدة أبنية إحداها «الهر باريو»، والثانية للمتحف إليهما عمارة للمكتبة وثانية للمعمل الكيماوي الخاص بالنباتات، والثالثة أقيمت لتكون منزلًا خاصًّا بناظر الحديقة.

وإنه لحق على سائح مخافة أن يضل الطريق بين مسالك الحديقة المتشعبة أن يشتري «الخارطة» الخاصة بها من عند البواب؛ فليس هناك ثَمَّة من مقاعد يقتعدها الزائر كلما أتعبه التجوال، ولم يشأ منظمو الحديقة وهي في حكم «المعرض الدائم» أن يجعلوها في وجهة العناية على النسق الأوروبي، كأن يجعلوا على الباب مقاعد ذات عجلات يركبها المرضى والمسنون الذين لا يمكنهم التنزُّه على أقدامهم.

وإني لأعجب كيف لا تفكر حكومة جاوة في أن تصلح من هذه الأخطاء؟! وضآلة الأجور التي يأخذها العمال ثم كثرة أولئك العمال لن يدع لها سبيلًا إلى أن تفلت من هذه الأخطاء التي تُثقل كاهل الزائر وتُضنيه، إن جو هذه البلاد لا يحمل أحد الأوروبيين على أن يسير على قدميه أكثر من ربع ساعة دون أن يتصبَّب بالعرق الغزير، وعلى هذا فقد كنا كما كان الأوروبيون نلبس القميص المفتوح الياقة «سبور»، وعلى الرغم من أنه لا يوجد لنا غيره وقاءً نتَّقي به ذلك الحر اللافح وهذا الضيق الشديد فقد كنا نستشعر التعب والخَوَر في وقت نحن في مَسيس الحاجة إلى الراحة حتى نرى هذه الحديقة الباهرة النادرة، وبين ما ألاحظه في حديقة النباتات أنها خلو من كشك خاص بالخفراء، وأنها تتحلَّى بأنواع من الصناديق الزجاجية التي وُضِعت فيها جملة من الحشرات و«أبو دقيق» في ألوان زاهية جميلة، ولقد رأيتُ لأول مرة في حياتي نوعًا من «السحالي» ذات أجنحة تطير بها كعصافير الليل كما رأيت بعضًا من العقارب السود، إلى ذلك ما شهدته من حشرات ذات لون أخضر

أو أصفر، وهي لغرابة منظرها تتراءى وكأنها صُنِعت من المعدن أو من الزجاج الملون بينما هي في الحقيقة نوع من الحيوانات وقسم من فصيلتها فسبحان الله أحسن الخالقين!

وبعد أن قضينا ما تمنَّيناه من شهود الحديقة عُدنا إلى الفندق حيث كانت الساعة العاشرة، فكان أول ما عنينا به أن نذهب إلى الحمام وأن نستريح.

في الساعة الرابعة مساء طلبنا «تاكس» للتنزُّه في المدينة وفي ضواحيها، فإذا بنا في طريقنا إلى الخلاء نجد أن الطريق التي نسير عليها تشبه ما شهدنا في طرق «جاوة»، فالأشجار والنظافة والعناية والبهجة كلها تتراءى هنا كما تبدو في كل طريق.

وقد لفت نظرنا ما شهدنا من شجرة ذات زهر أحمر يوجد نوعه في مصر، على أن وجه الغرابة في أمره أنه لا يرتفع في التربة المصرية إلى أكثر من ستة أمتار، بينما يرتفع في هذه الجزيرة إلى ثلاثين مترًا!

ولقد شهدنا كذلك شجرة من أنواع «النخيل» التي اختصت بها ضواحي «سنجابور»، ويمتاز ذلك النوع من النخيل الذي يدعى «كنسيا» بأنَّ ساقه في حمرتها تشبه المرجان، كما شهدنا بعضًا من العمارات الخاصة بالحكومة ثم أتينا على جولة في المدينة وضواحيها وانتهينا إلى حديقة الأزهار فأخذنا جولتنا فيها سيرًا على الأقدام.

وأبرز شيء يستلفت النظر في هذه الحديقة مجموعة «الأركدية» الجميلة.

وأدهش ما علمناه في صددها أن هذا اللون من النباتات يوجد في شتات نواحي الحديقة ملصوق ومعلق على الأشجار الكبيرة، بينما هو في جاوة ينمو حين يلصقونه بالشجر الذي يُدعى في بلادنا «الياسمين الهندي».

ولقد تأكَّد لنا هذا حين مررنا في طريقنا على قطعة من الأرض اتِّساعها فدان واحد أو ما يقرب من هذا القياس، وألفيناها مزروعة من ذلك الشجر وقد لصق على كل واحدة ما بين خمسة أو عشرة من هذا النبات.

ويجدر بي في هذه المناسبة أن أذكر لكم بأن الجاويين يحوطون مقابرهم بشجر الياسمين الهندي، ويجعلونه من حولها كأنه إطار بديع يضم صورة عزيزة.

وأتينا بعدئذٍ على الناحية التي تملأ أشجار النخيل فإذا هي مهمة جدًّا وعلى كثير من التنسيق والعناية، ثم غادرناها إلى مجموعة «الفوجير» والنباتات الأرضية «الواطئة» التي تكثر في صعيد الغابات نامية تحت أدواحها الباسقة.

ولو أن نزهتنا وجولتنا قد مرت في فترة قصيرة من الزمن فإن هذه الفترة قد أثقلتنا تعبًا ونصبًا بعَثانا على أن نجلس حيال «فسقية» تحوطها أشجار «الفيكوس» الذي يُعرف في بلادنا باسم «الكاوتشوك».

كما أنك ترى هنا أشجارًا ينتهي عمرها إلى ثمانمائة سنة؛ وذلك يعود في مجموعه إلى أن التربة خصيبة والهواء جميل، فترى أنَّها بذلك تمتد في حياتها إلى هذا الشأو البعيد.

فيما كنا نمتع النفس بهذه الصور الحية من نباتات جاوة وأشجارها العجيبة الساحرة، فاجأتنا السماء برعودها وانبسطت على أديمها كتائب السحب تنذر بالمطر الغزير، فأسرعنا إلى السيارة لتُعيدنا إلى الفندق قبل أن تصب السحب ماءها مِدرارًا، فإن جاوة كالبرازيل إذا أمطرتهما السماء هطل الغيث وابلًا، على أنه لن يدوم في انسيابه فترة رحيبة بل يزول وشيكًا، وكان حظنا أن ذهبنا إلى الفندق بعد نصف ساعة أعقبها هطول المطر غزيرًا.

١٣ أغسطس

في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين من صباح اليوم، أرسلنا في طلب سيارة تذهب بنا إلى «باتافيا»، ولقد انتهت فكرتنا إلى السفر بالسيارة دون القطار حتى نستعلم عن السفن التي تسافر من «جاوة» إلى «سنغافور» وحتى نقرِّر برنامج السفر، فألفينا الطريق من «بيتانزورغ» إلى جاوة على صورة واضحة من الجمال والرونق.

وفي الحق إنه لمن الصعب أن نتخير قطعة من قطعة لنقول إنها أجمل وأكمل، فإنه على امتداده منسق بهيج.

على أنه ليؤسفني بليغ الأسف أني لم أكن لأستطيع التعبير عن خوالج نفسي لا باللغة الهولندية ولا باللغة الجاوية، بينما تهيب بي هذه المناظر الرائعة على أن أتعرف كمينها وأتبين مكنونها، ويزيد في أسفي أني أخطأت فيما أخذت به نفسي من السياحة وحدي دون «دليل» يُفصح لي عن كل شيء وأتمكن من التفاهم معه.

فقد يكون مما لا يستسيغه المرء أن يُدعى إلى مأدبة تضم عددًا من السيدات ثم يضطر لجهله باللغة التي يتكلم بها أهل البلاد إلى أن يصمت، بينما تحفزه الحاجة الشديدة إلى التفاهم والحديث.

وفي الحق أني لم أختط في سياحاتي جميعًا خطتي في هذا العام، فقد كنت أجوب المملكة الواحدة في سفرة خاصة، أما في ذلك العام فقد ضممت إليها رحلات ثلاث مرة واحدة «أستراليا» و«جاوة» و«الهند» بينما كان من المحتم علي أن أُهيِّئ لكل إقليم من هذه الأقاليم الثلاثة رحلة خاصة بمعداتها ولوازمها جميعًا.

ولعل هذه العَجَلة أثر من آثار السن، فإذا أتى الإنسان في عمره على الخمسين عامًا فإنه دون شك، ومع أسف كبير يبدو مترددًا مغمورًا بالشكوك كثير التساؤل، كثير التفكير،

جمَّ الحنين إلى وطنه وصحبه، بينما هو في شبابه كثير الإقدام موفور الجرأة بعيد عن موطن الخطأ حتى ولو كان تافهًا بسيطًا.

غير أن الذي يخفف عن كاهلي هذا الأسف العميق، أن سياحتي ذلك العام قد قُدِّرت لبلاد متجاورة في مواقعها متشابهة في مناظرها وعوائدها وألوان المعيشة التي يعيشها أفرادها، فإن السائح الذي لم يتمكن من رؤية جاوة ليدهش بالغ الدهشة حين أقرر له أنها شبيهة بشمال أستراليا أو سنغافور أو شبه جزيرة ملقا، وأن هذه المواقع المتباينة تكاد في كثير من مشاهدها لا تتميز عن بعضها بعضًا.

وثمَّت حالة أخرى أوحت إلينا العجلة في هذه الرحلة واستجماعها إلى ثلاث دول.

تلك الحالة هي التي يحسها رجل الخمسين حين تتردد على مخيلته أشباح الماضي البعيد والمستقبل الغامض، وحين يرى أنه قد لا يعاود رحلته مرة أخرى، وقد لا يمكنه القدر من إتيان ما يريد.

تبلغ الطريق التي سلكناها بين «بيتانزورغ» وبين «بتافيا» خمسة وثلاثين كيلومترًا قطعناها في ساعة وربع غير مسرعين حتى نمتع النفس بجمال المناظر التي تُحيط مسالك الجزيرة والتي أصبحت خير ما يؤثر في السائحين.

وبدهي أن أُكرِّر في كل مناسبة أن تسعين في المائة من الطرق الجاوية معبد مرصوف شيِّق الجنبات، ولكنا حين اقتربنا من العاصمة ألفينا بهجة الطريق إليها أقل شأنًا وألفينا أنه رديء غير ممهَّد؛ ذلك أن عربات النقل والسيارات التي تغدو عليها وتروح قد أثَّرت تأثيرًا كبيرًا.

وأول ما شهدنا في «بتافيا» ونحن في طريقنا إليها بالسيارة أماكنها الوطنية ومقابرها، وكان أول ما أخذنا نفسنا به من عمل حين أصبحنا فيها أننا ذهبنا إلى شركة البواخر الهولندية على أمل أن نسأل رجالها هل في مقدورهم أن يعدُّوا أماكننا في الإياب على الباخرة التي ستغادر جاوة يوم ١٨ أغسطس، فإذا بنا نجد من جميع الموظفين في هذه الشركة رغبة صادقة في العمل على راحتنا وتحقيق كل ما يبعث إلى نفسنا السرور، وفي كثير من الأدب الجمِّ أظهرونا على أنهم في تمام العدَّة لأي عمل نرجوه.

فتركنا مكتب الشركة وأخذنا سبيلنا إلى مكتب السياحة لنرى هل من الممكن لنا أن نبدل تذكرة السفر على الباخرة التي قررنا العود عليها دون أن ندفع نقودًا، فبعد محادثة تليفونية قيل لي إنه لا مانع من تبديل التذاكر على أن يأخذوا خمسة في المائة، ولما تحقَّقتُ ذلك ذهبت إلى شركة البواخر الهولندية وأعطيت موظفيها التذاكر التي كانت معي وأخذت

الفرق في النقود ثم اشتريت التذاكر الجديدة، وكان من جميل صنيعهم معنا أن تعهَّدوا بأننا سننال في الباخرة أحسن مكان.

تركت مكتب الشركة إلى «بيتانزورغ» وهناك ذهبت إلى منزل الدكتور «فون ليفن» رئيس حدائق النباتات وناظر الحديقة الفنية الجميلة التي توجد في «بيتانزورغ»، فلما أن دخلنا عليه في مكتبه وتحادثنا سويًّا بضع دقائق قدمنا إليه بكتاب التوصية الذي نحمله من الكونت «ليمبور شتيرم» الحاكم العام في جاوة سابقًا، وأظهرناه على شديد رغبتنا في زيارة الحديقة والتعرف إلى ما فيها آملين منه أن يُسهِّل علينا سبيل التحقيق من كل شيء فيها، فكانت مقابلة الدكتور لنا بالغة الحفاوة سابغة الإكبار، وكان من حسن الحظ عنده، كما تحدث إلينا أن يُسهِّل أمامنا كل سبيل وأن يرافقنا بنفسه فترة الزيارة في أي وقت نُحدِّده، فجعلنا موعدنا الساعة السابعة من صباح الغداة.

وبعد عودتي إلى الفندق بادرت بإرسال تلغراف إلى مندوب «كوك» في «سنغافور» أظهرناه فيه على تبديل موعد السفر واليوم الذي أصل ميناءه فيه.

في الساعة الخامسة شربنا الشاي وأخذنا سيارة ذهبنا بها إلى خلف الحديقة، ثم ترجَّلت وسرتُ على قدمي وسط الغابات والأشجار وخاصة ما كان منها مرتفعًا عاليًا.

وإنه وإن تكن الأشجار هنا على شيء كثير من الارتفاع فإن واحدة منها لن تبلغ هذه الشجرة شجرة «السكوابا» التي توجد في «كاليفورنيا» بأمريكا الشمالية والتي تحدَّثنا عنها في رحلتنا إلى هذه القارة بأنها تجاوز مائة متر، كما تحدثنا في هذه الرحلة ذاتها أننا مررنا بعربة تجرها أربعة خيول في قبو مقطوع من ساق شجرة.

إن الذي يُؤسَف له أن الحكومة الهولندية حين أنشأت هذه الحديقة لم تتخذ لها قطعة رحيبة في الأرض بل غرست الشجر متقاربًا بعضه البعض حتى أشبه في منظره منظر الغابة المكتظة، وهذا الشأن مما يعوق الأشجار عن أن تنمو، وأن تستريح في مستقرها، بل إن الباحث في أنواعها لن يتسنَّى له ذلك من بعيد، وإنما يجب عليه أن يقف تحت الشجرة التي يريد تحقيق نوعها حتى يتمكن من ذلك.

لقد فعلت الحكومة الهولندية هذا بينما ترى أن الإنجليز يُعنون في مستعمراتهم وحدائقهم حين غرس الأشجار بأن يباعدوا ما بينها حتى تبدو مستريحة، وذلك في الحق مثل واضح يدل على أنهم لا يعملون ولا ينفقون إلا على رغبة صادقة بأنهم سوف يأخذون في المستقبل أضعاف ما بذلوا.

وكأنما تحققت الحكومة الهولندية من هذا الخطأ، فنهضت أخيرًا تفتديه بقطعة من الأرض تجاور الحديقة وتبلغ ما يقرب من مائة وخمسين فدانًا حتى تنفرج بها ضائقة

الحديقة، ولكنها ماذا تفعل وأمامها الأشجار التي غرست من مائة عام والتي لا يمكن بأي حال نقلها من مكانها؟

وعلى هذا فقد بقي الأمر على عهده السابق وبقيت أشجار الحديقة مُكدَّسة كأنها غابة كثيفة مؤتلفة الأفنان ملتفة الأغصان.

بعد أن استرسلنا قليلًا في وسط الأشجار أبصرنا بالسماء وقد احتوتها السحب وآذنت كالأمس بالمطر الغزير، فأخذنا طريقنا إلى الفندق سراعًا عجلين.

وفي الساعة السادسة مساء تفتَّحت عيون السحاب وصبَّت ماءها مِدرارًا على أن الغيث حين نضب قد ترك في جو المدينة صفاءً ونسيمًا عليلًا.

وإنه لخير لنا وأجدى علينا ألا نتبرم بهذه المياه التي تدعها الأمطار وترسلها السحب فإنها رحمة للبلاد، وبركة على الأرض ما فتئت تُنبت الزرع وتُغذي البحار وتخلق الشلالات.

الجاويون كاليابانيين كلاهما شغوف بالاستحمام مولع بالماء، ولأنهم يزاولون أعمالهم وجسومهم عارية فإنك ترى ألوان بشرتهم على شاكلة النحاس الأحمر، فإذا انتهوا من عملهم آخر اليوم تدثَّروا «ملحفة» من القماش ولفُّوا بها أجسامهم!

وإنه ليدهشني أن الذباب هنا يكاد أن يكون معدومًا، وأن التراب لا حياة له في هذه الأرض، وعلى هذا فإن عيون الأطفال سليمة لا عيب فيها، ونظافتهم ظاهرة محسوسة لمن يتمعَّن فيهم على نقيض الأطفال في مصر، أما منازل الفقراء والفلاحين فإنها أنظف من أشباهها لدينا.

ولقد شهدتُ كثيرين من أهل المدينة يمضغون نباتًا يدعونه «بتيل» حتى ينظفوا به أسنانهم ويُزيلوا من أوضارها، وهو نبات أحمر يترك في بصاقهم لونًا كلون الدماء.

وكل ما أخذته على «الكفور الصغيرة» أن جوها مُشبَّع دائمًا برائحة «زيت جوز الهند».

يُدهشني ألا تكون عناية الجاويين بمنازلهم كعناية الإنجليز فإن الغرفة مهما يكن بها من نوافذ خلو من الزجاج أو من شبكة السلك الرفيع التي يُقيمها الإنجليز على نوافذهم، وهذا الأمر من شأنه أن يدع للحشرات حريتها في السير والسباحة، وأن يجعل النوم الهادئ مستحيلًا على النائم، فقد هالنا في هذه الليلة أنا سمعنا أصوات الضفادع في الغرفة وكأنها توقيع النحاس على بعضه، بينما تأتي أُخريات من هذه الضفادع وكأنها تُقلِّد في أصواتها ضجيج القطار عندما يغلي البخار في مِرجله، وهذا في الواقع شيء عجيب!

١٤ أغسطس

لم أترك السهاد ليلة الأمس ولم أتمكن من النوم، فقد تسمَّعت إلى ضربات حيوان يوقعها على مِظلَّة النافذة، حتى خُيِّل لي أن إنسانًا يعالج الدخول إلى غرفتي، ثم سقطت بعدئذٍ إحدى الجثث على الناموسية فلما تبينيها ألفيتها خفاشًا كبيرًا.

وهذا ما يدفعني إلى القول بأن رغبتي في مشاهدة أكبر الحدائق الفنية النباتية في العالم قد دفعت بي إلى أن أُقرر في برنامج رحلتي أربعة أيام وخمس ليال أقضيها في «بيتانزورغ» مدينة الحديقة، ولكني لم أفكر في أن أقطن في أحد فنادق «بتافيا» طوال هذه المدة، وأن أذهب إلى الحديقة كل يوم في القطار؛ فهذا الفندق «بل في» الذي أُقيم به في «بيتانزورغ» أقل استعدادًا وأضأل شأنًا من نظائره في جاوة، وإنه لا يجذب إليه أنظار السياح لانعدام الراحة فيه، فإذا ما آوى إليه سائح فإنما كل همِّه أن يتناول الطعام فيه دون أن ينام به.

وعلى أي حال فقد عقدت عزيمتي على أن أودِّع هذه المدينة وفندقها حين أنتهي من دراستي في حديقة النباتات.

في الساعة السابعة توجَّهنا إلى ناظر الحديقة كما تواعدنا في الأمس فإذا به في انتظارنا على بابها، فبعد أن تبادلنا التحية مررنا في الحديقة، وأخذ يخبرني عن أجناس الشجر وأنواع النباتات ويُحدثني حديثًا مسهبًا عن أعمارها ووطنها حتى قضينا ساعة ونصف ونحن بين أرجاء حديقة أجدر ما توصف به أنها أفخم حديقة فنية في الدنيا، تتبعها حديقة «بارادانيا» في جزيرة سيلان، وتتلوها الحديقة النباتية في «ريودي جانيرو» عاصمة البرازيل، وترجع أهمية الحديقة التي جُبتُها اليوم مع مديرها لا لأنها تحوي مجموعة كاملة من النباتات فحسب، بل لأنها في نواحيها أشبه شيء بالدوائر العلمية، فقد جُعِلت للاستكشاف والتنقيب والدرس كما جُعِلت المستشفيات مكان الدراسة العملية لمن ينتهي

من دروسه العلمية في معاهد الطب؛ ولهذا ترى «بيتانزورغ» مليئة بجماعات من علماء النبات من فرنسيين وهولنديين وإنجليز وأمريكيين قَدِموا هذه المدينة وكل أطماحهم تنتهي إلى التعمق في دراسة النباتات التي تضمها حديقتها.

ولقد تسنَّى لي بعد أن انتهيت من زيارة الحديقة أن أجمع بضعة أسماء من نباتاتها رغبتُ حتى أشتريها.

وحين عُدنا إلى مكتب المدير تفاهمنا فيما أدفعه من نقود ثمنًا لهذه النباتات، وكيف يتمكن له إرسالها إلى مصر، ثم سلَّمنا عليه وغادرناه إلى متحف الحيوانات المُحنَّطة، فإذا بنا نرى بينها عظام سمكة من نوع «البلين» طولها عشرين مترًا وقد وُجِدت ميتة على شاطئ جاوة مع أن وجودها على ذلك الشاطئ حدث غريب؛ لأنها لا توجد إلا في البحار الشمالية دون سواها.

وأظهر ما في هذا المتحف أنواع الثعابين والوطاويط كما أن به نوعًا من فصيلة الثعبان يُدعى «سنجاب» وهو يطير كالخفافيش، كما توجد به «السحلية الطيَّارة» وأنواع غريبة من الأسماك.

يندر في هذه الأماكن أن يقع البصر على رجل أعمى أو أعرج أو ذي ظهر مُحدودب أو أحول، وأكثر الأهالي يعيشون على الأرز والسمك والفواكه، وعجائزهم مفقودو الأسنان، وبيوتهم مرتفعة عن سطح الأرض ومبنيَّة على عَمَد.

إن حرارة الجو شديدة لا تُطاق وعلى هذا فقد رجعنا إلى الفندق، وكان أول ما تبادر إلى ذهني من عمل أننا خاطبنا فندق باتافيا بالتلفون بأننا قد انتوينا أن ننزل فيه غدًا ونغادر هذه المدينة.

في الساعة الرابعة والنصف طلبت السيارة كعادتي للتجوال والتنزُّه، فمررنا على «كُبري» يتوسط نهرًا شهدنا فيه ما يقرب من عشرين حيوانًا من نوع «الجاموس» وقد استوى على ظهرها طفلان، بينما هي هانئة بالماء، ولعل الدلالة الملموسة التي تجلو أمامك حب «الجاموس» للماء، حين عودتنا من التنزُّه بعد نصف ساعة وجدناها ما تزال بين أطواء النهر تتمتع بمياهه.

وقد آنسنا في الأمهات حالة مدهشة، فإنها بعد أن تنتهي من استحمامها تشرك معها في الماء أطفالها التي لم تبلغ بضعة أشهر أو ما يزيد قليلًا!

واجتزنا في طريقنا غابة بها شجر «المطاط» الكاوتشوك.

وعلى مقربة منها بيت فخيم تُحيطه حديقة رحيبة وقد أضيء بالكهرباء، وذلك البيت يمتلكه صاحب هذه المزرعة، فإن «الكاوتشوك» أهم تجارة في جزيرة جاوة وبلاد الملايو.

ويُستخرَج المطاط من أشجار تزرَع على صفوف متراصَّة يؤلفون منها غابات واسعة، فبعد أربع سنين حين تنمو ويكبر ساقها يأتون إليها فيفصدونها فصدًا حلزونيًّا على ارتفاع أربعين سنتيمترًا من سطح الأرض وفي طول الرجل، ثم يضعون تحت جِراحها أكوابًا من الصفيح فتسيل إليها مادة بيضاء تُشبه اللبن، فإذا مسستها ارتبطت بيدك لوفرة ما هي عليه من لزاجة، ثم يأتون بعد اثنتي عشرة ساعة ويضعون ما حملته الأكواب في إناء كبير ويذهبون إلى المعمل الخاص ليحوِّرها إلى «المطاط» الذي تشاهده.

ولقد اتَّخذوا لهم طريقة جميلة في استدرار الأرباح وفي إنماء المكاسب؛ تلك هي أن يزرعوا بين الشجر الكبير شجرات صغيرة فإذا انتهوا من استثمار الأشجار الكبيرة وأصبحت ولا خير فيها ولا نفاع، أصبحت هذه الشجرات التي بنوها من حولها على حال يتسنَّى لهم به أن يستدرُّوا لبنها ليحوِّلوه إلى مال وفير وهكذا دواليك.

ثم مررنا على بعض أراضٍ زُرعت بالشاي، وعدنا إلى الفندق في الساعة السادسة.

لم أسترح هذه الليلة ولم أتذوَّق فيها لذة النوم، فقد وجدت في سريري سحلية بيضاء اللون كبيرة الحجم تشابه هذه السحلية التي ندعوها عندنا «بُرص» وشر ما تحمل معها من أوصاب أنها أداة للعدوى، ولقد كانت سببًا في خوفي من أن يقْفوها حيوان أشد ضررًا وأوخم آثارًا فيدخل الناموسية؛ وعلى هذا فإني لم أنم.

١٥ أغسطس

بتافيا

كان من أثر سُهادي ليلة الأمس أني رأيت في الفجر منظر الصباح الجميل يعلو سناه قمم الجبال الشامخة فيزيدها رونقًا ورواءً.

ففي الساعة الثامنة والنصف أخذ المستخدمون أمتعتنا إلى المحطة، وفي الساعة التاسعة كنا على رصيف القطار، ولما قدم وجدنا أن عربات الدرجة الأولى موفورة الفراغ.

وأعجب ما في قُطُر جاوة أنها بطيئة جدًّا فإن المسافة التي تفارق بين «بيتانزورغ» و«بتافيا» لا تجاوز خمسة وثلاثين كيلومترًا، ومع أن القطار الذي ركبناه كان «إكسبريس» فإنه لم يقطع الطريق إلا في ساعتين، على أننا حمدنا الله جد الحمد أن دخلنا «بتافيا» ونحن سالمين لم تمسنا هوام الأرض بسوء.

وأخذنا سيارة «تاكس» وذهبنا إلى «فندق الهند».

و«فندق الهند» رحيب فسيح يجمع إليه مائتي غرفة كل منها تحوي لوازمها الخاصة من دورة المياه وما إليها، ويخيل للناظر إلى ذلك الفندق أنه أمام «قشلاق كبير طويل».

ولست أدري كيف يكون الفندق ومقدار الفراغ الذي يشغله من الأرض لو أنه أقيم طبقة واحدة على هذه الشاكلة من تعداد اللوازم الخاصة ووفرتها؟

ولعلك تذكر ما وصفت لك به الحمامات في الفنادق الجاوية وكيف أنها تشبه حجرة «الزير» التي كانت في المنازل المصرية البالية، على أن الفنادق الكبيرة قد أخذت بعض الشيء ما ولَّدته الحضارة في طورها الوليد فجعلت حمامها «دُشًّا» لا شأن له بهذا «الماجور» الثقيل.

ولكن الفنادق الكبيرة لها إلى ذلك حالة تؤثر في نفس السائحين تأثيرها السيء؛ فإنهم لا يجدون من بوَّابها ولا خدمها ولا موظفيها عناية في الخدمة ولا رعاية تُوازي الأجور

الفادحة التي يتقاضونها، بينما تناقضها الفنادق الصغيرة في هذا الشأن بما تجلب لزائرها من أسباب الراحة والعناية الوافرة، وهذا التناقض أثر من آثار الازدحام في الأولى وقلة الوافدين على الأخرى.

على أن سكرتير الفندق قد صحبنا إلى حجرتنا التي حُجِزت لنا في الدور الأول.

ولقد جعلت إدارته لكل أربعة من غرفه خادمَين يؤديان رغبات ساكنيها ويقضيان حوائجهم.

أما حجرة المائدة فقد أُقيمت بمفردها على طبقة أرضية خاصة داخل الحديقة؛ ولأن هذا الفندق كبير أمثاله في جاوة وأكثرها أجرًا فإن الطعام فيه شهي مُتقن الطهي لذيذ، فتناولنا طعام الإفطار ثم أخذنا السيارة لنجول في المدينة جولة نتعرف فيها إلى أحيائها، وإذا أنا تحدثت عن «بتافيا» فإنما يجدر بي أن أذكر أن الحكومة الهولندية قد شطرتها إلى ناحيتين، ناحية ما تزال تتمتع باسمها القديم «بتافيا» وأخرى أطلقت عليها الحكومة «ولتر جاردن».

إن الشوارع التي اجتزناها في بداءة الجولة كبيرة مُتَّسعة، أقيمت في وسط بعضها «ترع» كبيرة ذات دَرَج من جانبيها حتى يمكن الأهلون من أن يغسلوا ملابسهم ويجففوها على هذه الدَّرَج بينما هم يستحمون، ثم مررنا على الحي الصيني واجتزناه إلى مشاهدة شادة؛ فقد رأينا مدفعًا تحوطه الأوراق الملونة، وذلك المدفع في عُرف الجاويين شيء مقدس وأنه قوة من السماء تجلب النمو إلى زراعتهم، فتراهم يُحوِّطونه بهذه العادة المصرية التي تدفع الجماهير إلى ربط الخرق على شجرة «ست مندورة» في الروضة، وعلى مسامير باب «زويلة» الذي يعرفه العامة باسم «باب المتولي»، مررنا بعدئذٍ على «الأكواريو» سوق السمك فألفيناه مغلقًا.

إن «بتافيا» وإن تكن مليئة بالأشجار محتشدة بها فإن جوها حار لا يُطاق، وهواءها يبعث الضيق إلى النفْس، وإنها بما فيها من «فابريكات» ومعامل وحركة لتجمع إليها كل مظاهر العواصم العامة للبلاد، وبعد ذلك ذهبت إلى الحلَّاق.

أمطرتنا السماء وابلًا في الساعة السادسة والنصف وصبَّت مُزْنها ما تحمل من غيث على المدينة، على أن الذي سُررنا له وطربنا به أننا تصفَّحنا الجرائد الفرنسية والإنجليزية، وتعرَّفنا منها أخبار العالم، وهذا شيء سار فإننا منذ سفرنا من أوربا لم ندرِ شيئًا من أخبار العالم اللهم إلا هذا النَّزر اليسير الذي كان يُرسَل بالتلغراف، ولقد قضينا شهرًا ونصف شهر لم نقرأ جريدة واحدة جديدة.

١٦ أغسطس

تسمَّعنا في الليل إلى صوت تمثلناه صوت عصفور البشروش أو البجعة، ولقد حسبه مختار كأنه نهيق الحمير، فلما تبينا حقيقته ألفيناه ضفدعة تقعقع في هذه الجلبة وهذا الضجيج.

ولقد كان الجو في الصباح جميلًا رقيقًا منعشًا، فبعد أن تناولنا طعام الفطور ذهبنا إلى البنك حتى نرسل منه «شِك» إلى ناظر حدائق «بيتانزورغ» ثمنًا للأشجار التي أوصيناه بها، ثم توجهنا بعدئذٍ إلى «الإكواريو».

إن الذي يشاهد «مكان السمك» من خارجه لا يكاد يعطيه من نفسه عناية أو اهتمامًا بل يعتقد أنه مكان صغير لن يجمع في داخله ما يُمتع، على أني حين دخلت إليه وشهدت ما يحويه، تحقَّق لدي أنه مكان نادر يُدهش العقول ويُحيِّر الألباب.

لقد شغفت طيلة حياتي بالكتب الخاصة بالحيوانات وصورها، ولكن الذي رأيته هنا من ألوان الأسماك حقيقة ماثلة لم تجمعها هذه الأسفار، ولم تصورها على الرغم من رونقها البهيج.

وأغرب ما شهدته من أنواع هذه الأسماك واحدة رفيعة تشبه الورقة ذات لون صدفي جميل، فإذا ما تحركت رأيت في لونها لمعان الصدف وألوانه جميعًا.

ولكم رغبت أن أشتري من تلك الأنواع النادرة العجيبة حتى يراها أصدقاؤنا في مصر.

بل لقد وددتُ أن أشتري الكتالوج الذي يضم صور هذه الأسماك لأحتفظ به كتحفة ذات أثر حافل ولكني علمت — وأنا شديد الأسف — أن آخر كتالوج قد بيع.

مررنا بعدئذٍ على سوق الفاكهة وأخذنا طريقنا منه إلى الفندق حيث ابتدأت حرارة الجو تصهر الوجوه، ومكثنا نكتب أشتات الرسائل والملحوظات حتى بلغنا تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا.

في الساعة الثانية عشرة ونحن في حجرة المائدة مرَّ علينا أحد الإفرنج وقد برز على وضع يلفت النظر، فثمة عمامة كبيرة تنتصب على رأسه وذقن كثَّة تستدير في وجهه، وكان مشهده من الغرابة بحيث دفعنا إلى أن نستوضح رئيس السفرجية كامن أمره وحقيقته، فإذا به يخبرنا أنه أحد الهولنديين المسلمين، وأنه قنصل دولته في جدة، ووكيل لشركة البواخر الهولندية، وأنه أدَّى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام.

رغبت حين تناولي طعام الغداء أن يكون من الطعام الوطني الخالص، وعلى هذا فقد استُبدِل «الطرشي» وما إليه من أنواع «السلاطة» التي يعرفها المصريون والإفرنج وبعض من بلدان الشرق، استُبدل هذا بما أحضره لنا السفرجي من طبق «أرز» يتلوه عشرون شخصًا، وكل منهم يحمل في يده طبقًا ملؤه لون من الخضار المتقن يفيض بالتوابل الحارة، إلى ذلك «قلب» شجرة البامبوز التي تعوَّد الصينيون أكلها وهي شديدة الشبه بـ «الكشك ألماظ» غير أني أفضله عليها كثيرًا، وكان بين الذي جمعته ألوان المائدة «كفتة السمك» و«سمك مملح» و«مستردا» وجميع هذه الألوان تمتزج بالأرز ثم تؤُكَل.

ولقد أكلنا على قصد منا أن نتعرفها فإذا بها معدومة اللذة لا تملأ النفس شهية إلى الطعام ولا حبًّا فيه، وقد هطلت سحب المطر غزيرة بينما كنا على المائدة، وكانت الشمس قد اختفت بين أردية السحاب فأصبح الجو رقيقًا وتمتعنا برخائه بينما كنا نتجنب لفحته البركانية طيلة الأمس.

الساعة الرابعة …

غادرنا الفندق بالسيارة للتنزه لشهود القسم الجديد الذي أُقيم في بتافيا، فإذا فيه يجمع إلى بهجته منازل ذات جمال ورونق وبهجة، وإذا بنا نعلم أن كثيرًا من هذه المنازل قد ابتناها أغنياء الهولنديين وسراتهم ممن تتَّصل أرزاقهم بالجزيرة، وأنها تظل خلوًا من أربابها طيلة العام إلا ثلاثة أشهر يأتون إليها لمراقبة مصالحهم وتحصيل إيرادهم ثم يئوبون إلى أوروبا على ألا يعاودوا تلك المنازل الجميلة إلا في العام القادم.

وفي الحق أن جميع منازل الأوروبيين موفورة النظافة تحوطها الحدائق المنسَّقة، حتى يُخيَّل لرائيها أنه يشاهد منظرًا من مناظر الخلاء والضواحي بينما هو في قلب المدينة يتمتع بهذا المنظر البهيج.

ولقد شهدنا في طريقنا أبنية أُقيمت للمدارس الإسلامية للإصلاح والإرشاد كما شهدنا مثيلاتها في اليابان، وإن منظر الفاقة والضَّعَة يبدو عليهما مجسمًا هائلًا يتحدث عن جسيم ما تعاني وبليغ ما تتألم.

يرى المسلم الشرقي ذلك المشهد المرير في المعاهد الإسلامية ويرى بجوارها مدارس الإرشاد المسيحية وقد أُنشئت لها قصور فخيمة تُفصح عن الثروة والتعضيد الجمِّ الذي يُؤاتيها من معضديها ومناصريها.

فأي أسف يشعر به المسلم وأي حزن عميق؟!

وحين عودتي إلى الفندق قيل لي إنه من حُسن حظي أن الباخرة التي سنسافر عليها إلى «سنغافور» هي أكبر باخرة موجودة لدى الشركة.

وفي الساعة الخامسة كنا نتناول الشاي، وقد تهيَّأت لنا فرصة سانحة تحدثنا فيها إلى «الهولندي المسلم» الذي أشرنا إليه آنفًا، ولما كنا نعلم أنه كرجل مسلم تُحبب إليه الأحاديث الدينية فقد بادرنا إلى سؤاله عن السبب الذي تعود إليه نُدرة المساجد الكبيرة المشيدة في جاوة، فأجابنا بأن المسلمين هنا وإن كانت أغلبيتهم قد أدت فريضة الحج إلى بيت الله الحرام واختلفت إلى ما يتجمع في المكان المقدس من أشتات المسلمين فإنهم على كثير من الجهالة بتعاليم الدين إلى ذلك ما عرفوا به من عدم التعصب، على أن الذين وجدوا منهم في الجزائر الأخرى التي تتبع هولندا قد أسَّسوا مساجد تربو في روائها ورونقها هذه المساجد التي نشهدها في جاوة.

وقد أخبرنا أنه يرأس شركة للبواخر تحمل الحجاج الصينيين والجاويين، وأن معدل ما تحمله يتراوح بين سبعة وأربعين ألف حاجٍّ وسبعين ألفًا من شبه جزيرة ملايو و«الفليبين» والصينيين، وأن أكثر أولئك الحجاج الأخيرين يركبون بواخر من ثغر «سنغافور».

ولما استوضحناه السر في كراهية الجاويين لعرب حضرموت أجابنا بإن أولئك العرب يعيش أكثرهم على النقود التي يمدون بها إلى الأهالي على طريقة الربا، وهذا سبب النفور والكراهية.

وقد عرفنا عن طريق ذلك «الهولندي المسلم» أن العائلات الكبيرة في جاوة تأبى أن تتصل برجال الحكومة الأجانب شأنها في ذلك كشأن كثير من بلاد الشرق التي أخذت نصيبها من هذه العوائد، وعلى هذا فإن الحكومات قد تركتهم وراءها ظِهريًّا.

غير أن الحكومة الهولندية قد مكنت بعض المتعلمين من أبناء البلاد من أن يشغلوا بعض وظائف الحكومة، ولكنا نأسف بالغ الأسف؛ لأنَّ أولئك الذين أخذوا هذه الحظوة في وظائف الحكومة حين تضعهم أقدارهم في منصب عالٍ لا يجعلون همهم الأكبر إلا خدمة الأجانب خدمة مطلقة باذلين فيها ألوانًا من الوقيعة بذويهم والدس لهم على صورة تتفهم الحكومة الأجنبية منها أنهم عضدها الأقوى وأن أولئك الذين يوقعون بهم إنما هم من نسيج الشيوعيين ومن عمل أيديهم.

ولا عجب في هذا فإنَّ الروح الوطنية متى خبت روحها في النفوس دفعت بمرضاها إلى العمل الخبيث، وإن الخير متى انعدم وجوده في القلوب فقد استحالت هذه القلوب إلى نواحٍ شريرة لا تعرف الصدق ولا تستوي على صفحة الحق.

وعلى هذا فإنَّك ترى رجال الحكومة من الوطنيين قومًا قُنَّعًا لا خير فيهم.

ثم استدرجنا بمحدثنا «الهولندي المسلم» إلى سؤاله عن جلالة الملك عبد العزيز بن السعود ملك الحجاز ما دامت له صفة خاصة ممتازة في جدة، فأجابنا بأنه يرى في ابن السعود رجلًا عظيمًا ذكيًّا مُحبًّا للخير عطوفًا، وأنه لو لم يؤدِّ إلى الحجازيين من فضل إلا ما وفَّر من أمنهم وأتى من رخائهم لكفاه ذلك فضلًا كبيرًا، على أنه يعقب على ذلك الإطراء بقوله إن الملك ابن السعود قد أحاط نفسه بحاشية من السوريين والأتراك الذين نزحوا من بلادهم لحالات خاصة واتَّخذوا الحجاز وطنًا، وإنه ليؤسفني أن أقول إن هذه الحاشية لا تؤدِّي إلا ما يجلب الرهبة في نفوس الناس، وإنَّها شر على الملك وإنها على الأمة الإسلامية بلاء كبير.

ثم قال محدثنا:

إنَّ خير فائدة تعود على المسلمين الجاويين والشرقيين في فترة الحج أنهم يمكثون في الحجاز ستة أشهر مُجبَرين على ذلك لتعطيل الملاحة، فيتسنَّى لهم في هذه الفترة المديدة أن يتعرفوا إلى شيء من اللغة العربية وإلى شيء آخر من تعاليم الدين، وفي الحق إن هذه مدة تكفي لتقوية عقيدتهم وتنزيه إيمانهم عن الصغائر والشوائب، وما دمت قد تحدثت عن العقائد فهي في جاوة أمر لا قيمة له وإن العناية ضئيلة من جانب الجاويين بالإيمان القوي المتين.

غير أنِّي لن أغمط أولئك الجاويين حقهم فإنهم يفاخرون الملأ العالمي بأن الدليل الحاسم على روحهم الإسلامية الأصيلة أنهم أكثر الشعوب الشرقية النائية نزوحًا إلى بيت الله الأقدس في موسم الحج، وهذا فخار لا شك أنه في موضعه.

وهنا شكرت الرجل على ما تحدث به وصافحته ممتنًّا.

أخذت السيارة في طريقي إلى الميناء فألفيت بها كثيرًا من العمارات التابعة لشركات أمريكية وإنجليزية وألمانية تشتغل في بحارة البن والدخان والمطاط.

وعدنا بعدئذٍ إلى الفندق.

التقسيم الطبيعي

تتكون جزائر الهند الهولندية من هذه الجزر المنبثة بين قارتي آسيا وأستراليا، وتؤلف تلك الجزائر الجزء الجنوبي الذي يمتد على الساحل الآسيوي من شرقه.

أما تقسيمها الطبيعي، فإنه يتألف من جزائر «سندا الكبرى» التي هي عبارة عن جزائر «سومطرة» و«جاوة» و«مادورا» و«بورنو» و«سيلبس» إلى ذلك الجُزُر الصغيرة التي تمتد بينها، أما جزائر «سندا الصغرى» فهي التي تقع بين «جاوة» وبين «تيمور» والتي عرفها الجغرافيون باسم «جزائر البهارات».

لقد تحدث علماء «الجغرافيا» أن الجزء الشرقي من الأرخبيل كان قطعة من قارة أستراليا، أما الجزء الغربي من آسيا، يتبعه بحر «بندا» العميق الغور؛ فقد كان كحد يفصل القارتين، وإنهم ليستدلون على تدعيم وجهة نظرهم وتقديرها بما يجدونه من سمك «الفلورا» و«الفونا» الذي لا يتواجد إلا في أستراليا وفي الناحية التي تُتاخمها من الجزائر.

نظام الحكم

تسيطر «هولندا» على الجزائر جميعًا سيطرة مباشرة وتحكمها على صفة استعمارية يكون كل شأن من شئونه عن طريق وزير المستعمرات الذي يُعتبر مسئولًا دون غيره عن تنفيذ هذا النظام والعمل على إقراره، أما الحاكم العام فإنه يُعيَّن من قِبَل التاج الهولندي، وله سلطة واسعة النطاق يستعملها مع خمسة من مستشاريه يؤلِّفون معًا مجلسًا عامًّا له سلطة الوزارة، وإن لم يكن هناك من برلمان يُسأل أمامه أولئك الخمسة ويُحاسبون على ما يبرمون من عمل وما ينفذون من إصلاح.

ولئن تكن هناك ولايات يحكمها فريق من الوطنيين على نظام يقرب من الاستقلال الذاتي فإن سلطة الحاكم العام وسيطرته تجعل ذلك الاستقلال هباءً وتُحوِّره إلى «حُكم مباشر» لا وجه للحرية فيه.

وأخطر رجل يعقب «الحاكم العام» في مركزه الممتاز هو «السكرتير العام» الذي يُنفذ مشيئة الحاكم ويقف منه موقف الظل من صاحبه، ويقيم السكرتير في «بيتانزورغ».

غير أن الحكومة الهولندية قد بدأت من عام ١٩١٦ تتدرج بالشعب الجاوي في سبيل الحكم التمثيلي؛ فأنشأت «مجلس الشعب – فولكسراد» وكوَّنته من تسعة وأربعين عضوًا انتخب الأهلون فريقًا منهم وعينت الحكومة فريقًا، ولكنه «مجلس استشاري» ليس له

أبسط ما لغيره من المجالس الاستشارية من حقوق، فليس من حقه أن يستجوب الحكومة ولا أن يُقرِّر الثقة بها أو يبحث في الميزانية أو أن يعتبر رغباته مُلزِمة للحكومة أن تعمل في حدودها، فالحكومة لا تستشيره إلا في حالات ضئيلة لا تُؤثِّر، ولا تتقدم إليه إلا في أوقات مُحدَّدة لا تُجدي ولا تُفيد.

ولقد قُسِّمت الجزائر إلى مقاطعات يتولَّى الحكم فيها تحت إشراف الحاكم العام فئة من كبار الموظفين لهم مساعدوهم في العمل الذي يتعيَّن عليهم إجراؤه تنفيذًا لرغائب الحاكم وتخفيفًا لمشيئته، وذلك الحاكم يعتمد في تأدية حقوقه على العائلات القديمة الإقطاعية التي كانت تستمد قوتها من سلاطينها دون غيرهم.

وكانت لجماعة الأوروبيين حقوق شرعية يستعملونها تحت سيطرة مباشرة من قبل الإدارة الأوروبية الحديثة.

ولقد أُنشِئ في العهد الأخير إقليم جديد أُقيم مع ثلاثة أخرى غرب الجزيرة الجاوية ويسيطر عليه الحاكم.

وصفوة القول إن المجالس البلدية التي أُنشئت في جاوة قد خلقت ظاهرة جديدة هي إجراء التنقلات بين نواب الحاكم العام في الأقاليم وإعطاؤهم السلطة لإجراء حقوق الوطنيين وتنفيذها في المدن الكبيرة، وذلك يناقض ما عليه حال الوطنيين في البلدان الصغيرة؛ فإن تنفيذ حقوقهم لا يتأتَّى إلا عن طريق زعمائهم الذين يقومون في حكم «العُمَد» بالريف المصري.

وعلى الإدارة الهولندية أن تراقب سير الحالة في حكم الوطنيين دون سواهم.

وهذه الإدارة تتألف من الحاكم العام، ومن مستشاريه الذين يُمثِّلون المصالح التالية:

الإدارة المدنية – المالية – الحقَّانية – المعارف – الأشغال العمومية – التجارة – الصناعة – الزراعة – الحربية – البحرية.

المناخ

أول سؤال يتوارد على ذهن السائح هو تعرف مناخ البلد الذي يرتاده، فعلى الرغم من أن جاوة تقع في المنطقة الحارة فإن مناخها ممتع جميل، وخاصة في جوانب الشواطئ التي يلطف هواءها متاخمتها للجزائر، وذلك الطقس الجميل لا يعفينا من القول بأن الطقس في السهول قريب في اعتداله لطقس الصيف في جنوب أوروبا، وفي ذلك الوضع نضع بعضًا من جهاتها العليا التي تبدو باردة بعض الشيء، وهذا يحملنا على القول بأن حرارة الجو

في المتوسط تهبط نصف درجة لكل مائة متر «٣٢٨ قدمًا» مختلفة الارتفاع. وصفوة القول: إنَّ اعتدال الحرارة اليومي يجعل سهلًا مقاومة التغيرات الفجائية في الجو، وإن حرارة الجو التي تذوب في وابل المطر تدع جاوة على الرغم من موقعها في المنطقة الحارة أجمل بلد يطمئن السائح ويرتاح إلى مناخه.

تلك الناحية الأولى في وجهة المناخ، أما الناحية الأخرى فتتلخص في أن جاوة قد مهَّدتها الطبيعة لتكون موطن «المونسون» فمن شهر مايو إلى أكتوبر يهب «المونسون» الجنوبي الشرقي على الجزيرة هبوبًا يعصف بهواء جاف، أما «المونسون» الآخر، فإنه يسبب الأمطار الغزيرة التي تنهمر على الجزيرة صيِّبًا واطفًا، وهذا لن يمنع نزول المطر رذاذًا فترة المونسون الأول، وينهمر المطر مدة «المونسون» الثاني إما بعد الظهر وإما في الليل، فلا يدفع الصباح نقاب الظلمة حتى يكون الجو قد تهيأ لحالة رائقة من الصفاء والشروق الذي ينبعث على السهول والروابي وإن يكن المطر قد أغدق على الأولى بعض مزنه وأفاض على الأخرى جميعها، غير أن «المونسون» حين يتحوَّر ترى أن الريح التي تُدعى Kenteringen قد هبت هبوبًا خفيفًا على صورة غير منتظمة بينما تتسمَّع إلى الرعد وبينما تبلغ الحرارة دور الغليان، وهذه الفترة في الحق أضأل فصول العام في جاوة تحبُّبًا إلى النفس وإمتاعًا لها.

وعلى أي حال فإننا نقرر بأن جاوة ليس فيها فصل خاص يجذب السائح أكثر من غيره؛ وذلك لأن الصيف يغمرها أكثر فصول السنة، وإن يكن جمهور السائحين قد فضلوا أن يجوبوا الجزيرة خلال «المونسون» المطري اتقاء من وهدة البرد القارس في بلادهم فإن السعادة الباقية لديهم أنهم يستطيعون التنقل من البلاد الساحلية إلى صميم السهول في وقت قصير «وطقس ممتع».

وعلى العموم فهي ليست ذات مناخ لافح، كما أنها ليست ذات مناخ معتدل، فإن الحرارة في المدن الساحلية قد تربو على «٨٠ف» بينما هي فوق التلال المنبسطة حيث تتوافر أسباب الراحة للسائحين لا تعدو مثيلها في أوروبا وأمريكا، غير أن هذا الطقس لن يكون إلا فصل الربيع، أما في الشتاء — وهو يبدأ عادة من أكتوبر وينتهي في إبريل — فإن الأمطار لا تنقطع كل يوم، ولكنها لا تستمر في هطولها يومًا بأسره بل ينزل صيِّبها إما في الصباح أو بعد الظهر، إلى ذلك ما فيها من نواح يغطيها الجليد فيكسبها طبيعة طقس جديد، فإذا انتهى الشتاء أصبحت جاوة في شبه جفاف وصارت حرارة الجو فيها على صورة تشقُّ على النفس وتضنيها.

ولقد عُنيت الحكومة بتوفير أسباب الراحة للسائحين حتى يتعرفوا حالة الجو وما فيها من تقلبات، فأقامت في «بتافيا» وفي مراكز السياحة الهامة «مراصد» خُصصت لتسجيل الحرارة والمطر، وهذا ولا شك صنيع موفق مشكور.

مساحتها

إن مساحة جزائر الهند الشرقية تبلغ ٥٨٧٣٧٠ ميل مربع، أما سكانها فإحصاؤهم قد بلغ ٤٠٥٠٠٠٠٠ نسمة.

تلك هي مساحة الجزائر بأسرها وذاك عدد سكانها جميعًا، أما جاوة وأما الجزائر الصغيرة التي تقع تحت سلطانها والتي تتبعها في نظام الحكم فإن مساحتها تبلغ ٥٠٧٩٨ ميلًا مربعًا، بينما يبلغ عدد سكانها ٣٠١٨٣٥٠٠ من الأنفس، وهذا يجعل لكل ٥٩٤ نفسًا ميلًا واحدًا من تلك المساحة، أما طول جاوة فإنه يبلغ ٦٦٨ ميلًا، وقلَّ أن يزيد اتساعها عن ١٢٥ ميلًا وربع ميل، وقل أن ينقص عن ٣٧ ميلًا وربع ميل.

أقسامها

تنقسم جاوة إلى سبع عشرة regency مديرية أسماؤها ما يلي:

بنتام، باتافيا، بريانجر، شريبون، بكالونجان، سمارانج، رمبانج، بانجوماس، كيدو، جوكجا كارتا، سورا كارتا،ماديون باسوروان، سورابايا، بسوكي، كديري، مادورا.

السكان

تجتمع في جاوة أشتات من أجناس البشر وأنواع منهم ألفوا لهم جاليات، أو اندمجوا مع الوطنيين دون أن تكون لهم ميزة إلا ميزة التاريخ البعيد، وكان اجتماعهم في هذه الجزر استجابة للدعوة الحارة التي فتح بها باب المهاجرة على مصراعيه، ففي طليعة المهاجرين طبقة الهندوس أولئك الذين أسَّسوا على سواعدهم إمبراطوريات قوية الشوكة مرهوبة الجانب «في جاوة وسومطرة» ثم انتشروا بعدئذٍ يبسطون سلطانهم على الجُزر الأخرى ويستعمرونها.

وهنا لا مناص من أن نقول بإن استعمار الهندوس لم يكن على الظاهرة التي عرفت بين المستعمرين، فقد كانوا يعاملون الوطنيين كإخوة بررة وكان لهذه الرعاية من جانبهم

أثر فعال عند الجاويين، فقد مكث للهندوس في قلوبهم ذكر حسن، وحديث يتناقلونه بالخير، وقد أصبحوا يتذاكرون فيهم عهدًا رخيًّا رضيًّا رفع بهم عن مستوى القبائل المتوحشة التي كانت تملأ «بورنو» و«سيلبس».

ثم جاء العرب فنشروا على الجزيرة بساط الرحمة الإسلامية، وأدانوا بالإسلام طبقات الأهلين وأسَّسوا في المدن معاهد الدين.

وتبع العرب «الصينيون».

وينتهي أصل الجاويين إلى قبائل «الملايو»، على أنهم الآن ينتمون إلى الجنس المعروف بالإندونيسيين الذين شُطِروا إلى أقسام:

أولًا: السنديون الذين يقيمون في جاوة الغربية.

ثانيًا: الجاويون الذين يُقيمون في جاوة الوسطى والشرقية.

ثالثًا: المادوريون الذين يقيمون في جاوة الشرقية وجزيرة مادورا.

على أن الساحل يحفل بعدد قليل من الوطنيين الأصليين — الملايو — الذين كوَّنوا لهم صلة وُثقى بأولئك الذين يُقيمون في سومطرة وشبه جزيرة الملايو.

وإذا نحن اتَّجهنا إلى إحصاء السكان لألفينا أن عدد السكان الوطنيين يبلغ أربعين مليونًا، بينما نرى أن الأجانب قد اتَّصلوا بلُحمتين: اللُّحمة الأوروبية والأمريكية واليابانية، واللُّحمة الأخرى هي طبقات الشرقيين الذين يتألفون من العرب والصين والهند، فأما الصينيون فإنهم يزيدون عن الجاليات الأخرى نصف مليون من الأنفس، بينما يبلغ تعداد العرب ثلاثمائة ألف نسمة، وأما الجنس الأبيض فإنه يبلغ مائة ألف نفْس.

ويجدر بنا أن نُعدِّد الجاليات الأجنبية على ترتيب كثرتها وهي: الهولنديون – الألمانيون – الإنجليز – الدانماركيون – السويسريون – الفرنسيون – الإيطاليون – أجناس أخرى ضئيلة الشأن قليلة العديد

ويُؤلف الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون الجبهة القوية في السكان الأجانب، بل إن لهم مكانة ممتازة، بينما يُعرف غيرهم «الأجانب الشرقيين» تمييزًا لهم عن الطبقات المتحضرة، ولكل من تلك الجاليات قانون خاص ترضخ لأحكامه وهو يناقض القانون الذي وُضِع للوطنيين في أكثر نصوصه ولوائحه.

ولعل أكثر «الأجانب الشرقيين» رفاهية في الجزائر الهولندية هم فئات «الصينيين»، فإنهم وحدة قوية تتعامل مع الأهليين وغيرهم بجد ودراية، أما العرب فإن ميزتهم الخاصة أن الدين قد حبَّبهم إلى الأهلين، وقد تراهم يحصلون على نقودهم الكثيرة من طريقه.

وعلى وجه عام فإن جميع ما يُسن من قوانين وما يُنفَّذ من مشاريع إنما يُتوَّج بالصبغة الأجنبية في تلك الجزائر التي يسَّرت لها أسباب السعادة والتقدم الكبير.

إحصاء عام

قلنا إن تعداد جاوة يبلغ ٣٠,١٨٣,٥٠٠ من الأنفس، ونوزِّعه هنا على الأجناس التي تقطنها فيما يلي:

وطنيون	٢٩٨٠٠٠٠٠
صيني	٢٩٦٠٠٠
أوروبي	٦٥٠٠٠
عربي	١٩٥٠٠
شعوب وأجناس أخرى	٣٠٠٠

أما تعداد السكان في المدن الكبيرة فهو كما يلي:

المدينة	وطنيون	أوروبيون	صينيون	عرب	أجناس أخرى
باتافيا	١٠٠٠٠٠	٩٠٠٠	٢٩٠٠٠	٢٠٠٠	٢٥٠
سيمارانج	١٠٠٠٠٠	٥٢٠٠	١٤٠٠٠	٧٠٠	٨٠٠
سورابايا	١٢٥٠٠٠	٨٠٠٠	١٥٠٠٠	٢٥٠	٣٥٠
جوكجه	٧٤٠٠٠	١٥٠٠	٥٣٠٠	١٠٠	١٠٠
سولو	١١٠٠٠	١٦٠٠	٦٦٠٠	٣٥٠	٤٥٠

الدين

يدين الوطنيون بالإسلام إلا فئة قليلة تقيم في جانبي جاوة الشرقي والغربي ما تزال تدين بالعقيدة الهندية، أما الكثرة الساحقة فإنها تتبع الشريعة السمحاء، فإذا شئنا أن نضع

مقارنة بينها وبين المسيحيين في جاوة لكنا أمام مشكلة لا تُجدي؛ ذلك أن المسيحيين هناك قلة لا تحسها تلك المجموعة الهائلة من المسلمين.

إنَّ الإسلام قد بسط أول خيط من بُرده الموشَّى على جاوة من القرن الثالث عشر، ولم يتعاقب عليه قرنان حتى كان منتشرًا في كل فجٍّ ذائعًا على كل لسان، حتى لقد بلغ من تقدير الجاويين لشعيرة الحج أن عدد حجيجهم لا يقل عن مائة ألف، على أن الحكومة في العهد الأخير قد قررت «حرية العقائد» وأباحت لكل وطني أن يدين بما تطمئن إليه نفسه من شرائع، وكان صنيعها هذا باعثًا لوأد هذه الحزازات التي كانت تباعد بين المزارعين وبين البروتستانت والكاثوليك.

وعلى الرغم من أن الكثرة تعتنق الإسلام، فإن نفوذ القُسُس في الحكومة من الناحية الدينية ما يزال له أثره وله تقديره.

النهضة الاقتصادية

إنَّ جاوة لفي طليعة جزر الأرخبيل تقدُّمًا في وجهة الاقتصاديات، وإنها بما غذَّت به الأسواق من نتاجها قد اتَّجهت إليها الأنظار وخاصة في السنين العشرة الأخيرة، ويكفي أن نذكر من بين الجزر الهولندية جزيرة سومطرة وما أخذت به حياتها الاقتصادية من تقدم باهر ليتأكد لديك أن الناس لم يُخطِئوا حين أطلقوا عليها «جزيرة المستقبل» تسجيلًا للسرعة البالغة التي تخطو بها في سبيل الرقي والكمال خطوات واسعات!

الزراعة والصناعة

لقد عرفت الجُزُر الهولندية من زمن مديد أنَّها بلد زراعي خصب الصعيد جميل الإنتاج، ولكنها في المدة الأخيرة قد أضافت إلى تفوقها في الزراعة حركة صناعية تُبشِّر بمستقبل زاهر، وقد انتعشت تلك الحركة الصناعية لما تحفل به الجزيرة من المواد الأولية كالفحم، وما إليه من المواد المعدنية التي توجد بكثرة في جمع من الجُزر.

على أن أبرز ما في الناحية الزراعية بهذه الجزائر أنها قد شُطِرت إلى وجهتين:

أولًا: الزراعة الوطنية.

ثانيًا: الزراعة الأوروبية.

فأما الزراعة الوطنية فأكثرها الأرز الذي يزرع كثيرًا في «جاوة» و«بالي»، وزراعة «الفلفل» التي تشمل «استين – شمالي سومطرة» والتي يعمل فيها السكان كمادة أولى لثروتهم، كما يزرع البن والأثمار الشرقية جميعًا، إلى ذلك عنايتهم الخاصة بالغابات التي توجد بكثرة في «بورنو» و«سمطرة» و«سيلبس» والتي تجمع أخشابها عديدًا من الأجناس الخارجية ليمونوا بها الأسواق، وأجدر مزروعات الأرخبيل بالذكر هي:

الأرز – قصب السكر – البن – الكينا – الشاي – التبغ – القمح – النيلة – التابيوكا – الكاكاو – الفلفل – القطن – المطاط.

وأما الزراعة التي تخص الأسواق الأوروبية فأجدرها: المطاط – التبغ – الكينا – الشاي – البن – وما إلى ذلك من أثمار شرقية.

المحاصيل الرئيسية

يُعدُّ «الأرز» في جاوة في المرتبة الأولى بين المحاصيل، ولزراعته هناك طريقتان، إحداهما أن يزرعه السكان في حقول لم يغمرها الماء، وتلك هي طريقة الزُّراع في الجهات الجبلية المستوطنة في أجزاء الجزيرة المتفرقة، والأخرى أن يزرع في حقول مغمورة تشبه شرفات أُحيطت بأسوار ضيقة حتى تحتجز الماء فيها، ولكي تعلم مبلغ ما يعتمد الجاويون على الأرز نذكر أنَّهم في عام ١٩٢٢ قد زرعوا الأرز في أرض مغمورة تبلغ مساحتها ٣٠٠٠٠٠٠ هكتار أو ربع مساحة الجزيرة بأسرها، إلى ذلك ٣٥٠٠٠٠ هكتار زرعت على الطريقة الأولى، فأنبتت نباتًا رديئًا في قيمته، وإنه وإن تكن جاوة تنتج من الأرز ما زنته ٣٠٠٠٠٠٠ طنًّا من الأرز فإن هذا المقدار ما يزال بحاجة إلى التنمية حتى يكفي سكانها وحدهم، ففي عام ١٩٢٣ كانت قيمة الوارد إليهم من الأرز ٢٤٠٠٠ جلدر، على أن هذا لن يمنعنا من القول بأنهم قد صدروا منه ذلك العام أيضًا ما قيمته ٤٠٠٠٠٠ جلدر؛ ذلك أنهم يبيعون الأصناف الجيدة التي لا تنبت إلا في جاوة ويستعيضون عنها بما يقفوها في القيمة ويتلوها في النقاء.

ولكن «الأرز» لم يمكث له مكانه في طليعة المحصولات فقد اتجه الجاويون إلى التجديد في الزراعة والإكثار من أنواعها، حتى أجادوا زراعة «القمح الهندي» التي أصبحت مساحة ما يزرع منه في العام مليون ونصف مليون من الهكتارات، إلى هذا زراعتهم لشجر «الكاسافا» في مساحة قدرها ٧١٩٠٠ هكتار، إليهما البطاطس الحلو – اللفت – الفول السوداني إلخ، غير أنهم قد برعوا في «الكاسافا» حتى صار تصديرهم منها يعادل

اثنين وعشرين مليونًا من الكيلو جرامات، أما الدقيق فإنهم يُصدِّرونه إلى الولايات المتحدة دون غيرها.

وتأتي زراعة «الشاي» في المرتبة الثانية بين المحاصيل الجاوية، وهو يزرع في مساحات تتراوح بين ٤٠٠ متر وبين ١٥٠٠ مترًا، وأجود نتاجه يأتي عن الأراضي العليا، أما الأراضي السفلى فإنها تعوض عن الجودة بكثرة المحصول ووفرته، ولقد كانت دراستي المستفيضة لزراعة الشاي حينما زرت حقل التجارب الذي أُقيم خاصًّا به في بيتانزورغ وكانت دراسة علمية عالية خرجنا منها بالكثير من خواصه ومحتوياته، فإذا نحن أردنا أن نحصر عدد الحقول التي تزرع الشاي لألفيناها مائة وستة وخمسين حقلًا، تقدر مساحتها جميعًا بمائة وإحدى وعشرين ألف هكتار، يبلغ نتاجها أربعين مليونًا من الكيلو جرامات، يخص الحقول السابقة منها ٩٠٪ بينما ينتج أصحاب الزراعات الصغيرة من الأهالي ما يتبقى، وعلى أي حال فإن جاوة تنتج ١٠٪ من محصول الشاي في العالم، وإذا استمر لأهلها ذلك الجهد في تنمية زراعته فإنهم دون شك سيرتفعون بهذه النسبة أرقامًا أخرى!

وقد يكون من المسلم به أن زراعةً ما في العالم لم تنمُ بسرعة مدهشة في وجه الإنتاج كما نمت زراعة المطاط في جاوة، فقد كانت عدد الحقول التي تزرعه في جاوة عام ١٩٢٢ أربعمائة وثمانية وثلاثين حقلًا مساحتها ١٦٤٠٠٠ هكتار يأتي منها ٦٠٪ بمحصول جيد وافر، أما المطاط فإنه يُزرع على مسافات بين مائة متر إلى سبعمائة، وأكثره يبدو على نسق المشاتل تُزرع من البن في شرقي جاوة أو مع الشاي في غربها.

وثمة محصول آخر لا يقل وفرة عما تقدم من محاصيل جاوية هو «جوز الهند» فقد بلغ تعداد أشجاره عام ١٩١٧م ثلاثة وستين مليونًا، وأكبر الظن أن ذلك العدد قد تضاعف في السنوات الأخيرة وبلغ إلى رقم هائل، وهناك إلى ذلك أنواع الفواكه التي تخص المنطقة الحارة على أن جاوة لا تُصدِّر منها غير «الموز».

ويُعادل محصول السكر في جاوة ما يعادله الشاي من نسبة؛ فإنه قُدِّر ب ١٠٪ من مجموع ما يُنتج في العالم تزن ١٨٢٠٠٠٠ طنٍّ، يشتغل فيها ١٨٢ معملًا على ما قدره الإحصاء العام سنة ١٩٢٣، وعلى هذا فإنه يأخذ المكان الأول بين الصادرات، فإذا نحن استثنينا «كوبا» ألفينا جاوة مركزًا هامًّا لتصدير قصب السكر الذي يُزرع في السهول المنبسطة الطامية في قلب الجزيرة وشرقها، والذي تشبه حقوله مثيلتها في «كوبا» على أنه يندر أن تزيد مساحة الحقول التي تزرع قصب السكر؛ ذلك لأن الحكومة لا ترضى أن تقل المساحة المنزرعة أرزًا إلى ذلك استطرادًا لزيادة بين السكان ولكنها تسعى جهدها إلى

تجويد محصوله مُذ أقامت له حقلًا خاصًّا بالتجارب في «باسوروان» أما طريقة الشركات في استغلاله فإنهم يُؤَجِّرون الأرض ثلاث سنين ويقتصرون تلك المدة على زراعته دون غيره، وصفوة القول إن نتاج الهكتار الواحد يبلغ من ١١ إلى ١٨ طنًّا.

ويأخذ «الكاكاو» مكانه بين المحاصيل الممتازة فقد صُدِّر منه عام ١٩٢٣م ما زنته تسعمائة طن، وإنه وإن يكن محصوله قد انتقص في السنوات الأخيرة وقد أصابه كثير من الانحطاط، فإن الذي يُعوِّض ذلك النقص هو ارتفاع ثمنه ارتفاعًا كبيرًا.

أما «البن» فإنه من الوفرة بحيث قُدِّر له أن يكون بين الصادرات الهامة التي تبعثها جاوة إلى شتَّى الممالك، وقد بقيت له شهرة اسمه «مزروعات التل» من قرون حتى أصبح «البن العربي» أجدر المزروعات وأجزلها جودة، على أن الآفات الشديدة التي انبثت فيه قد اضطرت الحكومة إلى أن تزرع أصنافًا استوردتها من «ليبريا» و«روبستا».

ويبلغ تعداد المزارع التي تخصُّ البن ٢٧٨ مزرعة أكثرها في الجانب الشرقي من جاوة، يُزرع منها ٤٧٠٠ هكتارًا من البن فقط و٥٥٠٠٠ تمتزج بالمطاط، ويقدر محصوله بـ ٣٤٠٠٠٠٠٠ من الكيلو جرامات أو ما يعادل ٣٪ من محصول البن في العالم.

و «التبغ الجاوي» وخاصة ما كان منه من Djocjakarta وSurakarta قد امتدت له في الآفاق شهرة حسنة وإن لم يغالب بها تبغ سومطرة الشهير، وتتبع الشركات التي تنتجه طريقتها في تأجير الأرض لقصب السكر.

وعلى وجه العموم فإن جاوة تمد العالم بما تستخرجه من «الكينا» وذلك لأن الحكومة هي التي تملك مزارعها، وأكبر مزرعة حكومية هي Tjintiruan وتُعدُّ في نفس الوقت مركزًا للتجارب الخاصة بـ «السكنونا»، ومن ذلك المركز تصدر البذور لتُباع في مزارع أخرى كجنوب Bandung وفي Preanger وتقرب مساحة المزروع من ألف وثمانمائة متر.

تلك فذلكة عامة عن «المحصولات الرئيسية» في جاوة أثبتناها لنقرر أن الصناعة الجاوية لا تقوم إلا على دعائمها، فهذه الجزيرة خلو من الصناعات اللهم إلا تلك «القبعات المضفورة» وقبعات البامبوز التي صُدِّر منها ثلاثة من الملايين يبعث بثمانمائة وثمانين ألف جلدر، إلى ذلك اثني عشر مليونًا وسبعمائة ألف من Pandan hats بيعت بما يقرب من مليون ومائة واثنين وأربعين ألف جلدر، وهذه إن تكن صناعة فمن الحتم أن نضيف إليها مثيلاتها من الصناعات الصغيرة كالنحاس وما إليه من أعمال ذات فائدة عند الوطنيين وذات أثر لدى السائحين.

وأما الصناعات الأوروبية فإنَّها وإن تكن ما تزال في بداءة نهوضها تمد الأهلين بنصيب وافر من مطالبهم، وهذا ما يُبشِّر لها بمستقبل زاهر سعيد.

ويُستخرج من المحصولات الجاوية كل عام ما نقدره فيما يلي:

٣١٠٠٠٠٠٠٠	رطلًا من السكر
٣٥٦٥٠٠٠٠	رطلًا من البن
٢٢٥٠٠٠٠٠	رطلًا من Peruvian Park
٩٢٠٠٠٠٠٠	رطلًا من الدخان
٢٨٠٠٠٠٠٠	رطلًا من الشاي
٣٢٠٠٠٠٠	رطلًا من الكاكاو

إلى ذلك ما تبيعه جاوة من الخشب الذي تنتجه والذي يقرب ثمنه من مليوني دولار من الذهب.

كذلك ما تُنتجه من ذلك النوع الذي يدعونه «آراك» وهو مشروب مقطر من القصب والأرز، وما تنتجه من الغاب الهندي «الخيزران» والجلود والفلفل والنيلة وجوزة الطيبة وdamar وcoprah وcapoc والمطاط.

المعادن

يقدر إنتاج «جاوة» في العام من المعادن بما يلي:

٤٠٠٠٠٠٠٠	رطلًا من القصدير
٤٥٠٠٠٠	طنًّا من الفحم (الطن يساوي ٢٥٠٠ رطلًا إنجليزيًّا)
٣٠٠٠٠٠٠	جالونًا خام من البترول
٥٠٠٠	رطلًا من الذهب
٢٨٠٠٠	رطلًا من الفضة
١٠٠٠	قيراطًا من الماس

إلى ذلك كميات وافرة من المعادن العديدة.

الحيوانات

أما الحيوانات فإنَّ إحصاءها كما يلي:

٢٢٠٠٠٠٠	من فصيلة الجاموس
٢٧٠٠٠٠٠	من فصيلة البقر
٣٦٥٠٠٠	من فصيلة الخيل

إلى هذا آلاف من الحيوانات العديدة.

وأهم الإنتاجات عدا ما ذكرنا لك:

جلود البقر والأغنام، جلود السحالي، الحيَّات، خشب التك، الزيت، قبعات البامبوز، مشروب الأرز والقصب، شمع النحل، القرنفل، جوز الطيب، الأبنوس، خشب الصندل، القرون، عصافير الجنة.

حركة التجارة

بلغت الصادرات حدها الأقصى عام ١٩٢٠ حيث قُدِّرت به خمسمائة مليون جلدر؛ ذلك أن أثمان السكر كانت ذلك العام باهظة، غير أن هذه الطفرة في إنعاش التجارة قد أحدثت رد الفعل، ولقد كانت «جاوة» على أبواب نكبة اقتصادية لو لم تتداركها يد العناية التي أجزلت فيها عديدًا من المحاصيل إن خبا نجم واحد منها فبجواره نجوم أخرى تتألق، وعلى هذا فقد بلغت الصادرات لعام ١٩٢٣م إلى ٨١٩٠٠٠٠٠٠ جلدر يعادل ما يُصدَّر من السكر بين هذه القيمة ٦٪ وكذلك «المطاط» فإنه يبلغ ذلك الرقم، ثم يقفوه في وجهة التصدير، التبغ – البن – الكبرا – التابيوكا – السنكونا.

أما البلاد التي تُصدِّر إليها جاوة فهي اليابان والهند والولايات المتحدة، ونصيب كل من هذه الدول الثلاث من الصادرات الجاوية ما يعادل ١٢٪ من مجموعها، ثم إنجلترا وهولندا، ولا يزيد الصادر إليهما عن ١١٪ من المجموع.

غير أن التجارة الجاوية قد وجدت لها أسواقًا جديدة فقد طلبت «هنغ كنغ» الصينية ما يعادل ٩٪، كما طلبت «سنغافورة» ما يعادل ٦٪، وذلك دليل حاسم على أن المنتوجات الجاوية سوف تتغلغل في جوانب الأرض جميعًا.

أما الواردات فقد بلغت قيمتها عام ١٩٢٠م إلى ٨٠٠٠٠٠٠٠ جلدر، ثم نقصت هذه القيمة ما بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣، وهي تجمع ما تحتاج إليه بلد زراعي تقع في المنطقة الحارة، وتريد أن تغذي سكانها بما لا قبل لهم في صنعه وإنتاجه.

وأوفر ما تستورده جاوة عن الولايات المتحدة هو الزيت، السيارات، السجاد، الورق، وخاصة منه ورق الصحف المكتوب الذي يُطلق عليه في مصر اسم «مرجوع الجرائد» حيث يستعمله الصينيون في حوانيتهم للف السلع التي يبيعونها، على أن تجارة الجزائر قد اعتصمت بأيدي الهولنديين أولئك الذين يبلغ نصيبهم منها ٨٠٪، ثم تعقبهم إنجلترا التي يبلغ قسطها ١٢٪، أما الباقي وهو ٨٪ فإنه بأيدي دول عديدة شتى.

طبيعة الجزيرة

تنعزل «جاوة» عن العالم بما يُتاخمها من بحار إلا من ناحية جنوب أمريكا، وبها عدد من الأنهار أطولها «سولو» الذي يبلغ طوله ٥٤٠ كيلومترًا، على أن هذه الأنهار لا تصلح بحال ما للملاحة؛ وذلك لضيق مجراها وقوة تيارها، ولكن قوارب السكان الصغيرة تغدو فيها وتروح، وفي صدد البحار والأنهار نذكر أن جاوة تُنتج سمك «فلورا» الذي يشبه أسماك المنطقة الحارة وأسماك «سيلان».

أما المناطق الجبلية فإنها تذخر بنباتات المنطقة المعتدلة حيث يكثر فيها النخيل وأخشاب البناء.

على أن الذي يدهشك هو ذلك النوع العجيب من الأشجار الذي يشبه شجر الشربين الأوروبي والذي يتفرع عاليًا على المقابر الأوروبية، بينما ترى نوع الشجر الآخر الذي ينبت على المقابر الإسلامية هو من هذه الفصيلة التي أُطلق عليها «شجرة الموت».

الطرق والمواصلات

إنَّ «الطُّرق» الجاوية على غاية من النظام والبهجة، وإن العناية بها جديرة بالإعجاب، فهي في جاوة متعددة تصل بعضها بعضًا وتجوبها السيارات دون عناء، ولقد اكتملت لبعض الجزر الأخرى تلك الميزة الخاصة بجاوة فأُنشئت في جزيرة «سمطرا» عدة طرق، على أنها في الجهات المحلية ما تزال في طريق الإنشاء والتعمير إلا إذا استثنينا الطريق التي تصل إلى سواحل «سمطرا» الشرقية والغربية التي يصلها طريق «سمطرا» الشهير.

أما خطوط السكك الحديدية فإن التقدم في مدها يدل على الرغبة الصادقة في تعمير الجزائر وإيصالها بعضها بعضًا، على أن تقدمها في الجزائر الخارجة عن جاوة يعبر عن بطء منتظم لا شك أنه سيصل إلى سرعة معقولة، فإنك ترى السكك الحديدية في جنوب «سمطرا» وفي شرقها وأطرافها، إلى ذلك خط حديدي صغير أُنشئ في «سيلبس».

وتُمد خطوط السكك الحديدية بواسطة الحكومة التي تعمل على إكثارها في الجزر.

ويبلغ طول السكة الحديدية الممتدة في جاوة ١٣٤٩ ميلًا؛ ولأنَّها أقيمت على منحدرات جبلية فإنَّ سرعة قطار الإكسبريس لا تزيد في الساعة عن خمسة وثلاثين ميلًا، أما في السهول المنبسطة فإن سرعته تبلغ خمسين ميلًا.

وستساير الشبكة الحديدية التي تخترق الآن جاوة سُنة التقدم وستتضاعف دون ريبة، وإن أكبر ما يخترقها من خطوط هذه الشبكة الحديدية هو خط البريد الطويل الذي أُنشئ بأمر المارشال Daendels الذي كان حاكمًا عامًّا في عهد نابليون، والذي ضاعت في صدد إنشائه أموال طائلة وذهبت في سبيله نفوس كثيرة، وهو يبدأ من Anger ويُوازي الجانب الغربي للجزيرة إلى سورابايا إلى أن يصل بطرفها الشرقي الأقصى إلى panaroekan وBanjoeuangi، وهناك خطوط أخرى كثيرة تخترق الجزيرة في اتجاهات مختلفة مارة بمدن وقرى مهمة، غير أنه على طول الطريق الذي يسبح فيه لا يمر على أماكن السياحة الهامة، وفي هذا ترى أن السائح يستعيض عنه بالسيارات التي تخترق الطرق الحديثة الجميلة الرواء، وإذا شئنا أن نُقسِّم السكك الحديدية إلى أقسامها التي عرفت بها لألفينا هناك:

أولًا: محطات السكك الحديدية للمستعمرات الهولندية التي تُعرف باسم سكة حديد حكومة جاوة.

ثانيًا: الخطوط التي استأجرتها شركة الترام ومركزها الرئيس في Semarang.

ثالثًا: شركة ترام Semaranggoana.

رابعًا: خطوط تخص إحدى عشرة شركة غير ما ذكرنا.

على أنَّ هناك فروقًا فنية أخرى، فشركات الترام لا تسير قطرها إلا على حالة بطيئة توفيرًا للمصاريف، وحتى لا تكون هناك ثمَّة أضرار تلحق نصيب الشركة، وهذا ما يقلق الجمهور ويُضنيه.

ولكنَّ النِّظام في السكك الحديدية يبدو على الصورة التي تُسعد الراكب وتبعث السرور إلى نفسه، فقطارات الإكسبريس تلحق بها المائدة على النظام الحديث، وإن يكن من المؤلم بمكان أن المسافر لا يمكن له أن يحجز مقعدًا خاصًّا ولا أن يجد قطارًا يسافر به في الليل.

عربة الطعام

تلحق «عربة الطعام» بإكسبريس – باتافيا – ماوس – سورابايا – وبإكسبريس – جاوة – باندنج – سورابايا – وقد اتَّخذوا موعد الغداء من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثانية، أما المائدة فإنها تتألف عادة من لحم مشوي – كباب – شربة – بطاطس – خُضَر منوعة – أرز – بيض مقلي – لحم من فخذ الخنزير – لحم بقري – جبن – حلويات – خبز – مشروبات متعددة.

وقد جعلت أثمانها من القلة بحيث يتمكن منها كل من شاءها.

أما أثمان الطعام الحار – شربة – كباب – بطاطس – خُضَر – فاكهة – جبن فإنَّها تبلغ ١,٥ فرنك.

أمَّا المواصلات الأخرى فهي سيارات الأمنيبوس، إلى هذا تلك الشركات القليلة التي تعنى بتسيير سبل المواصلات وعلى رأسها شركة السكة الحديدية الهولندية.

البريد والبرق

يبلغ تعداد مكاتب البريد والتلغرافات ٤٧٨ مكتبًا تخص جاوة وحدها، أما تعدادها في الجزائر الهولندية جميعها فإنه يبلغ ستمائة وثمانين مكتبًا.

وتمتد الخطوط التلغرافية في جاوة إلى ٢٥٠٠ ميل، بينما هي في الجزائر الهولندية ٥٧٨٣ ميل، وتمتد أسلاكها في الجزائر إلى ٩٠٠٠ بينما تمتد في جاوة إلى ٥٤١٧ ميل.

الفنادق

تشتمل كل مدينة هامة في جاوة على ما لا يقل عن ثلاثة فنادق من فنادق الدرجة الأولى، يناقض ذلك ما عليه المدن الصغيرة فإنها لا تشتمل غير فندق واحد، أما جوانب جاوة النائية فإنها تستعيض عن الفنادق بأماكن خصصتها الحكومة أول الأمر كاستراحة لموظفيها الذين يجوبون تلك الأماكن البعيدة، ثم تدرجت بها إلى أن سمحت للأهلين الركون

إليها حيال أجر خاص تتقاضاه، وهي كالفنادق توفر الخدمة على ساكنها ويقضي خدمها حوائجه.

ويحتشد في جاوة عدد من الفنادق الأوروبية التي امتازت بغرفها العديدة وبهذه «الفرندة» التي جُعلت لكل غرفة لتكون مكانًا لاستراحة النازل بها أو لاستقبال ضيوفه وزائريه، أما الحمَّامات فإنها ليست على النظام الأوروبي في شيء؛ لأنها حمامات باردة اللهم في النواحي الجبلية فإنَّها خلو منها، غير أنَّ الذي يعوض السائح عن أوصابه أنَّ كثيرًا من خدم الفنادق يتكلمون اللغات الثلاث المنتشرة؛ وعلى هذا فإن التفاهم معهم ميسور لا يُحدث عناء.

ويعد خدم الفنادق الوطنيين على حالة ممتعة من رقة الشمائل والطواعية، فإنَّهم لا يأبقون أداء أي عمل ولا قضاء أيه حاجة، بل إنهم من السرعة بحيث يغسلون الثوب في أربعة وعشرين ساعة حيال أجر قدره عشرون سنت، فإن أظهروا الرغبة في تأخير الثوب إلى أبعد من ذلك الموعد نقص الأجر إلى نصفه، وفي كلتا الحالتين يأخذون أجرهم وهم جَدُّ مغتبطين.

ويمكن للسائح أن يستأجر السيارة التي يريد أن يتنزَّه بها بواسطة الموظف المسئول في الفندق، ويتفاوت أجرها بمقدار ما تتفاوت المسافات التي نجوبها، ففي الأماكن الصغيرة تبلغ التعريفة «سبعة جلدر» وفي الأماكن الكبيرة وخاصة منها ما كان مركزًا هامًّا للسياحة تبلغ من «عشرة جلدر» إلى «خمسة عشر جلدر».

غير أنَّ الفنادق تتبع الطريقة الأمريكية في وجهة البُعد عن تخفيض أي شيء من الأجر حينما يجدون السائح لم يضع في برنامج إقامته تناول الطعام بالفندق أو حينما تكون الرحلة قصيرة بحيث لا يتسنَّى له أن يُقيم في الفندق إلا بعض يوم، أما قيمة الأجر فإنه يدخل فيها أجرة الغرفة وقهوة الصباح والشاي أو الشكولاته، والإفطار والغداء والشاي الذي يعد بعد الظهر والعشاء، وقد استثنوا الحمام والماء المثلج فلم يتناولوا أجرًا عنهما.

ولكن «البقشيش» في الفنادق الجاوية له شأن البقشيش في كل فنادق العالم، فترى أن الصبي يتناول من السائح يوميًّا ما بين ٢٥ و٥٠ سنت إذا كان أداؤه لعمله مقرونًا بالنجاح، أما إذا امتدت مدة الإقامة فإن البقشيش يتراوح أسبوعيًّا ما بين «واحد جلدر ونصف إلى جلدرين ونصف»، ويتناول البقشيش غير خدم الفندق حامل الحقائب الذي يذهب بها إلى القطار عند السفر وسائق السيارة.

الصحة

تُؤدِّي «المصلحة الطبية» واجبها في تهيئة الصحة للشعب أداءً مكفولًا بالنجاح والخير، فإنَّها تضم إليها عددًا وافرًا من مشهوري الجراحين والأطباء، وقد استعدت لهم بأسباب العلاج على صورة تكفل العمل الإنساني بريئًا من كل شائبة، أمَّا المستشفيات التي أُنشئت بالمدن الكبيرة فإنها جُهِّزت بكل طريف، وقد ضمَّت جيشًا من الممرضات اللاتي أَصبن من المقدرة في عملهن نصيبًا جليلًا.

ويعجبك في نظمها أنها قد أباحت للمريض تخيُّر ممرضه بنفسه حتى يكون له من الاطمئنان ما يبعد عنه وساوس المرض وأعباء التفكير فيه، ويزيد في إعجابك أن ترى المستشفيات العسكرية التي توفرت عليها أسباب العناية قد اشتُهرت بمعاملتها الرحيمة السخية للمرضى من الأهالي والأوروبيين. وقد اشتُهرت إلى ذلك بأنها لا تتناول من المرضى الخصوصيين إلا أجرًا زهيدًا جدًّا حيال علاجهم الذي يأخذ منها أكثر الأمر جهودًا كبيرة.

وقد يكون من بواعث الخير للإنسانية أن الأطباء في جاوة قد تخيرتهم الحكومة ممن أَلمُّوا باللغتين الهولندية والملايوية وباللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وفي هذا ما يسهل عليهم مهمة شاقة، هي تعرُّف الحديث إلى المرضى من أشتات الأجناس تعرُّفًا يصيبون به كبد الصواب فيما يُزاولون من علاج.

ثم تأتي «المصحَّات» الجاوية التي تفرَّدت بشهرتها الذائعة لمواقعها الجميلة في صميم الطقس البارد. ويمكننا أن نسرد لك الجهات التي اشتُهرت بمصحاتها، وهي: Garoet & Sindanglaya وWonosobo وSeloand وTosari.

ولكي تكون أمام صورة بارزة لهذه المصحَّات نذكر لك أنها أُقيمت على شاكلة الفنادق التي يستمر فيها وجود طبيب خاص على أُهبة العمل. وفي صددها نسجل محمدة جميلة لأصحاب الفنادق في جاوة، فإنها موفورة بالأدوات الصحية من وجهة المياه الساخنة التي يتمكن السائح من استعمالها دون أجر إلى ذلك دورات المياه التي تعهدتها النظافة تعهُّدًا أبعد عنها كل مكروب. وإنه إن تكن أماكن الاستراحة في النواحي الجبلية ما تزال تستعمل المياه الباردة على شاكلة المياه في حمامات الفنادق، فإن هذا لا يمنعنا من القول بإن العناية بالصحة العامة في جاوة وفي فنادقها قد بلغت إلى الغاية القصوى والشأو البعيد.

ولكيلا نُسهب في وصف الحالة الصحية بجاوة نذكر أن المرضى في الجهات الحارة الذين يتألمون من وفرة السكان في تلك الأماكن وما تجلبه من أمراض يمكنهم بقليلٍ من

الأجر وزهيد من النفقات أن يقضوا في المصحَّات والمستشفيات مدة كافية لاسترداد قُواهم وللنقاهة من أمراضهم، وذلك في الحق عملٌ مشكور، وصنيعٌ مبرور.

العملة

	سنت	شلن	بنس
الجلدر «روبية جاوية» يساوي	٨	١	أو ١٠٠
الـ Kwartje يساوي	٥		
الـ Dubbltje يساوي	٢		

إجراءات السياحة

صدر قانون خاص للسياحة في المستعمرات الهولندية؛ ففي حدود الهند يُعفى السائح من تطبيق قانون المهاجرة عليه إلا أن يكون من أولئك الذين يُعَدُّون خطرًا على الأمن؛ فإن القانون لا يبيح لهم أن يقيموا في جزائر الأرخبيل.

وهناك «تصريح الإقامة» الذي يُعطى للسائحين وهم على الباخرة مقابل مائة جلدر، وهذا المبلغ يُحفظ للسائح ويُرد إليه إذا لم يقبل الإقامة أو إذا ترك المستعمرات خلال ستة شهور بعد دخوله إلى أرض الأرخبيل.

وذلك التصريح يشمل «قانونيًّا» عائلة السائح الشرعية، إلا أبناءه الذين جاوزوا سن الواحدة والعشرين فإنه يُحتِّم أن يكون لكل منهم تصريح خاص بنفسه.

وقبل أن يُعطى «تصريح الإقامة» يُكشف على طالبه كشفًا طبيًّا، فإن كان الطالب امرأة كشفت عليها دكتورة خاصة، وإذا لم يُبدِ الموظف الخاص بالتصريحات أية شروط فإن التصريح يستبدل في الحال بشهادة الدخول إلى المستعمرات، وهذه الشهادة تُطلب شخصيًّا من سكرتير لجنة المهاجرة في الموعد الذي ينزل فيه السائح من باخرته، فإذا كان السائح مصحوبًا بعائلته الشرعية فإن شهادة الدخول تُعطى في الحال إلى زوجته وأولاده الذين يبلغون ٢١ سنة، وتبلغ قيمة تلك الشهادة ١٥٠ جلدر.

تلك هي الإجراءات الخاصة بالإقامة التي تُنفذ حيال السائحين بدقة تشهد لكل موظف أنه يؤدي واجبه بالنزاهة والنشاط.

جوازات السفر

فيما يجب على السائح إلى جاوة استصدار جواز السفر من مكتب مساعد الوكيل السياسي الذي يُقيم في مكتب السياحة الرسمي وفي الفنادق الكبرى في باتافيا، وعليه أن يدفع ثمن الجواز ١,٥ فرنك، ولكي تقف على لوائح السياحة في جاوة ننشر لك الإعلان التالي:

إعلان

نذيع إلى جمهور السائحين في جاوة إلى أنه يجدر بهم أن يمتنعوا عن إعطاء الوطنيين نقودًا على صورة «بقشيش» وألا يسمعوا إلى رغبتهم في طلبه إلا أن يكون ذلك عن محض سخاء وكرم، فإن أدَّى لهم أحد الوطنيين عملًا فإن أجرهم عليه يجب أن يكون أجرًا معقولًا، أما إعطاء البقشيش في الفنادق فإنها لضرورتها قد اعترفت بها الدول جميعًا وقد قُدِّر للصبي من البقشيش مبلغ خمسين سنتًا.

أما السائقون والحمَّالون فإن أجرهم يبدأ من خمسة وعشرين إلى خمسين سنتًا وذلك وفق ما يسيرون من مسافات، وأما الأدلَّاء والمرشدون فإن أجرهم خمسة وسبعون سنتًا.

مكتب السياحة الرسمي

١٨ أغسطس

يوم السفر: كان الجو في الصباح حارًّا لا يُطاق.

ففي الساعة الواحدة بعد الظهر أخذ الحمَّالون متاعنا الكبير إلى الميناء، ولقد ذهبنا إليها نحن بعد الغداء، فقطعنا طريقنا إليها بالسيارة في نصف ساعة لأنها تبعد عن الفندق ستة أميال، وفي طريقنا إلى الميناء شهدنا «جاموسة» مكسورة الرِّجل وقد أسرع الناس في سبيل الجزارة حتى يذبحها ليكون أكلها حلالًا.

أما الباخرة التي ستحملنا مدة السفر فإنها كبيرة حقًّا، وحين وصلنا إليها أخذ رئيس السفرجية رقم القمرة التي سننزل فيها، وعندما صعدنا إلى الباخرة ألفيناها جميلة ووجدنا بها كُبري للتنزُّه والألعاب على ظهرها.

وعلى هذا فقلَّ أن ترى أحدًا يمشي حيال نوافذ الغرف الخاصة بالساكنين.

وكان بين الراكبين طائفة من السائحين اكتظَّت الباخرة بأقاربهم الذين قدموا معهم لتوديعهم، وقد علمنا أن الباخرة بعد أن تصل إلى «سنغافورا» ستأخذ سبيلها إلى هولندا «رأسًا».

أقلعت الباخرة في الساعة الرابعة وتركت الميناء وأخذت طريقها بعيدًا عن الشاطئ، فحمدنا الله أن هيأ لنا سبحانه أسباب الرحلة إلى جاوة، وحمدناه جلَّ شأنه على أن حفظنا من المخاطر، وأحاطنا بكنف من عنايته السامية ورعايته العالية.

وفي إقلاع الباخرة ورحيلها إيذان بانتهاء الرحلة وجوازها شأوها الأخير.

حين خروجنا من الميناء شهدنا الباخرة التي أقلتنا من أستراليا إلى جاوة، وحين ابتعدنا عن الشاطئ أصبحنا في جو رخو هنيء عليل فسُررنا لما نتمتع به بعد ستة عشر يومًا قضيناها بين القيلولة والهجير.

ثم مررنا على جزيرة «بنكا» وشهدنا شواطئ «سومطرا» فإذا بنا نقع على منظر عجيب.

منظر لرجلين من الإنجليز قد اتَّشحا بلباس صغير كذلك الذي يلبس في لعب الكرة.

ولشد ما أدهشني أن يصطحب الرجلان معهما فئة من السيدات وهما على ذلك الزي الشاذ الذي لا يستعمل في أوروبا إلا داخل المنازل والذي يستحيل على رجل أوروبي أن يلبسه خارج منزله.

والذي يزيد في دهشتي أن واحد الرجلين قنصل لإنجلترا في جزيرة «يورنيو» وأن هذا الزي المقبول هنا وفي البلاد الجاوية لاشتداد الحرارة ليدفعني إلى التساؤل:

أمن أجل حرارة الجو يتشبه المتمدنون من الأوروبيين بطبقات الزنوج فينزعون عنهم ثيابهم وتبدو جسومهم عارية على هذا الوضع الذي تشمئز منه النفوس؟

١٩ أغسطس

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين وقفت الباخرة بنا عشر دقائق أمام «منتك» عاصمة جزيرة «بنكا»، وهناك غادرنا عدد من السوَّاح وكثير من الصينيين الذين يتحدث الإفرنج عنهم بأنهم أقدر الشعوب الشرقية مزاولة لمهنة التجارة ونجاحًا فيها.

بعد الساعة الخامسة والنصف سارت الباخرة بنا بين جزائر تتلقفها ذات اليمين وذات الشمال، وفي الساعة السادسة كنا على خط الاستواء وهنا يجدر بي أن أقرر حقيقة واقعة وهي أن البلاد التي تقع جنوب خط الاستواء تناقض في طبيعتها البلاد التي تقع في شماله، فإذا كانت هذه في فصل الصيف، كانت الأخرى في فصل الشتاء، وقد كان سفرنا كله اليوم بين عديد من الجزائر.

٢٠ أغسطس

أديت صلاة الفجر في الساعة الرابعة صباحًا وتلوت بعدها ما تيسَّر من القرآن الكريم، ثم شهدنا إذ ذاك سواحل «شبه جزيرة ملايا»، وفي الساعة الخامسة لمعت على الشاطئ أضواء مدينة «سنغافورة».

وفي الساعة السادسة كنا على الميناء فإذا أشباح الضباب تغزو سماء المدينة فتُعيد إلينا مشاهد السماء في لندره.

وإذا بهذه السلسلة الممتعة من الجزر الصغيرة التي انبثت على جوانب الميناء تُلبسها ثوبًا من البهجة.

وإذا بمنظرها يُعيد إلينا مشاهد الموانئ في شمال أستراليا وفي جزائر المستعمرات الهولندية، وفي الساعة السادسة والنصف ألقت الباخرة مراسيها على الرصيف.

هنا تتم رحلتنا في المستعمرات الهولندية، وهنا أكرر الحمد لله حمدًا يقصر القلم عن وصفه وتعجز النفس عن تصويره.

وهنا أشكره على ما هيَّأ لي من أسباب الصحة والتوفيق حتى أُتيح لي أن أتعرف إلى جوانب كونه الرحيب وملكه الفسيح.

وهنا أسأله جلَّ شأنه أن يتم علينا نعمة السداد في العمل الصالح، والتوفيق فيما يرضيه إنه سميع مجيب النداء.

هنداوي